المشرق

السنة السادسة والاربعون

اذار - نيسان ١٩٥٢

من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

المستطاب من اخبار القبقاب

كانت عادة احتذاء القبقاب شاملة كل ديار الاسلام في الشرق والغرب. ومن الابيات التي حُفظت في وصفه بالمغرب ما كتبه ابو الحسن علي بن محمد بن علي بن البناء الاندلسي من مدينة وادي آش (Guadix) وقد اهدى « قباقيب خشب جوز » الى لسان الدين الخطيب المشهور . قال فيها :

هاكها ضُمَّرًا مطايا حسانا   نشأت في الرياض قضبًا لِدانا
وثوت بين روضة وغدير   مُرضَعات من النمير لُبانا
لابسات من الظلال برودًا   دوحها الغضب رقّة وليانا
ثم لما اراد إكرامها الله   وسنّى لها المُنى والاماتا
قصدت بابك العليّ ابتدارا   ورجت في قبولك الاحسانا (١

١) نفح الطيب ٣ : ٤٧٥

واجود منها البيتان الآتيان نسبها البدري في « محاسن الشام » لابن هانئ الاندلسي وابن حجر العسقلاني وابن تنري بردي لأقوش البيسري وهما مما كان يكتب على القبقاب :

كنتُ غصناً بين الرياض رطيباً مائل القد من غناء الحمام
صرت احكي عداك في الذل اذ صِرتُ مهاناً أداس بالاقدام

وكانت دمشق من اشهر الحواضر التي عُرفت بصناعة القبقاب ولم تبرح الى اليوم محفوظة فيها ولها سوق مخصوصة وراء الجدار القبلي من الجامع الاموي تُعرف «بالقباقيبية» ومن دمشق كانت تُجلب مصنوعاتها الى مصر ولذلك عدّها البدري في جملة القافات التي تحمل من دمشق للديار المصرية[1] .

واختلفت انواع القبقاب ولم يُحفظ من اسمائها القديمة الا « الزحّاف » ورد ذكره في ترجمة قاضي القضاة زين الدين التفهني الحنفي من اهل القرن الثامن للهجرة قال تقي الدين المقريزي : ووقعته مع الميموني مشهورة من حكه بسفك دمه وعقد بسبب ذلك مجالس والميموني يحاججه عن نفسه ويقول له : أتق الله يا عبد الرحمن أنسيت قبقابك الزحّاف وعمّيتك القطن ؟[2] ولا يزال هذا الاسم باقياً بدمشق يقال له ازحّافي واحياناً الجركسي او المهاجر لاتخاذ الجراكسة له المهاجرين في الصالحية وهو اقل الانواع ارتفاعاً والصقها بالارض واخفها ثمناً .

وهنالك نوع آخر كان يقال له فيما يظهر « قبقاب سجك » اشار اليه ابن اياس في وفاة قاضي القضاة محيي الدين بن النقيب بمصر سنة ٩٢٢/١٥١٦ قال : كان سبب موته انه كان يمشي في الاسواق بقبقاب سجك فتوجه الى خان الخليلي فرفسه فرس فوقع على فخذه فانكسر فحملوه الى خلوته التي في المدرسة المنصورية فاقام بها اياماً ومات[3] .

ومن اسمائه الشائعة اليوم في الفيحاء « الشبراوي » لارتفاعه شبراً او نحو ثلث ذراع و « العكاوي » وهو دونه علواً لا يُدرى هل سمي كذلك لاتخاذ

١) نزهة الانام في محاسن الشام ٣٦٤
٢) المنهل الصافي لابن تنري بردي . باريس ٢٠٧١ ج ٤ : ٤٥
٣) بدائع الزهور لابن اياس ٣ : ١٧

اهل عكا له او لانه ربما كان يصنع قبلًا في مدينتهم و « الكندرة » لشبه بالحذاء المعروف بهذا الاسم بين العامة.

وربما اناف ارتفاع القبقاب على نصف ذراع كان يرغب فيـــه من بُلي بالقصر المفرط او أغري بحب العظمـــة والظهور . ومن الاقزام الذين وصلوا قامتهم بطول قبقابهم الحسام اقوش المؤذن بالجامع الاموي من صلحاء القرن السابع للهجرة « عُمل له قبقـــاب عالٍ جدًا ليرفعه من الارض كان يطلع به جريًا في سلالم كل مأذنة واعتاد ذلك »[١] ونقـــل رضي الدين ابن الحنبلي في ترجمة زمضان فتح الدين المنوفي نزيل حلب من اهـــل القرن العاشر انه « كان مشهورًا بالميل الى العظيم من كل شيء . وكانت عمامته عظمى واكمامـــه في غاية الاتساع وجبته المصقولة في غاية الصقالة وقبقابه في غاية الارتفاع »[٢].

وكان « الزحاف » اكثر الاشكال رواجاً لرخصه وسهولة المشي والجري به ولذلك رغبت به العوامّ ولمـــا توفي ابن يتيمة بدمشق سنة ١٣٢٨/٧٢٨ « ذهبت النعال من ارجل الناس وقباقيبهم ومناديل عمائهم لا يلتفتون اليها لشغلهم بالنظر الى الجنازة »[٣] واعتاده قوم فكانوا يصعـــدون الجبال او يسافرون مشياً به . حكى ابو شامة في ترجمة الشيخ ابي عمر شيخ الصالحيـــة والمقادسة المتوفى سنة ٦٠٧/١٢١٠ انه « كان يصعد يوم الاثنين والخميس الى مغارة الدم (في جبل قاسيون) ماشياً بالقبقاب فيصلي فيها ما بين الظهر والعصر »[٤] وروى ايضاً في كلامه على الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي احد شيوخ الصالحيين المتوفى بسفح قاسيون سنة ١٢٢١/٦١٨ قال : قال ابو المظفَّر : كان سليم الصدر من الابدال ما خالف احـــدًا قط رأيته يوماً وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان : ما تروح الى بعلبك ؟ فقال له : بلى فمشى من ساعته الى بعلبك بالقبقاب »[٥]

١) تالي كتاب وفيات الاعيان للصقاعي . باريس ٢٠٦١ ص ٨٥
٢) در الحبب في تاريخ اعيان حلب . باريس ٢١٤٠ ص ٦٠–٦١
٣) البداية والنهاية لابن كثير . خزانة اكسفرد Marsh. 676 f° 121ᵇ
٤) ذيل الروضتين . باريس ٥٨٥٢ ص ٧٦–٧٧
٥) 〃 〃 〃 〃 ص ١٤٣

ومن اغرب ما حُكي ان احد ارباب الملاعيب من حلب حضر الى مصر سنة ٩٢٤/١٥١٨ « ونصب في بركة القرع التي بالحسينية صواري وحبالاً وكان يوم الجمعة فلما صعد على الحبال اظهر اشياء غريبة منها انه مشى على الحبل وفي رجله قبقاب وتحته الواح صابون »[١].

واغرب ما زعموه ان الشيخ ابا العباس احمد بن قدامة المقدسي المدفون سنة ٥٥٨/١١٦٣ في سفح قاسيون « كان صاحب كرامات ... مشى على نهر يزيد بالقبقاب فلم يبتل »[٢] .

واكثر ما كان يلبس القبقاب في الاسواق والازقّة اتّقاء للوحل ايام الشتاء. ولذلك قال ابو الحسين الجزّار :

لئن قطع الغيث الطريق فبنلتي وحاشاك قبقابي وجوختي الدار [٣]

واعاد هذا المعنى في قصيدة له اخرى فقال :

جبّتي في الامطار جلدي ولُبّا دي ثوبي وبغلتي قبقابي [٤]

وكان القبقاب يُصطنع من خشب الجوز والمشمش والتوت والصفصاف والزان ويُطعّم بالاصداف والعظم وتُمدّ فيه الاسلاك من القصدير او الرصاص ويغلب استعماله مدهوناً ولم يكن يلبسه من الخشب الابيض الا المعسرون والفقراء ، ومن خانهم الدهر من الاغنياء والعظماء . واشهر من احتذاه من الخلفاء القاهر بالله العباسي ومن الفاطميين المستنصر بالله بعد ان خرج من جميع ما يملكه في القصر . ولما قدم ناصر الدولة بن حمدان الى مصر سنة ٤٦٤/١٠٧٢ وحكم فيها « سيّر الى المستنصر يطلب منه المال فقدم اليه الرسول فاذا هو جالس على حصير وفي رجله قبقاب من خشب ابيض من غير دهان ولا سير وحوله ثلاثة من الخدم »[٥].

١) بدائع الزهور ٣ : ١٦٢

٢) حدائق الانعام في فضائل الشام لابن عبد الرزاق الدمشقي . الخزانة الظاهرية بدمشق

٣) فوات الوفيات لابن شاكر ٢ : ٢٩٨

٤) الرابع من المُغرب في حُلى المَغرب لابن سعيد ١٥٦

٥) الكامل لابن الاثير ٨ : ٢٢٢-٢٢٣ واخبار مصر لابن ميسر ٢١

وربما اتخذ القبقاب احياناً من الرخام لثقله ليلبسه المتسابقون في العوم والسباحة وممن تميّز بذلك في ايام السلطان الملك المؤيد شيخ المعلّم مؤمن من معلمي النشاب شوهد « وهو يعوم في النيل بحضرة السلطان المؤيد المذكور . وفي رجله قبقاب من الرخام وقد علّق برقبته قفّة فيها آلات طبخ المأمونية ومنها كانون بنصاب من اسفله ومعه قوس موتور شبكه على رأسه وفي فمه سهم نشاب وهو يطبخ في الكانون المذكور بلطافة في قالب لطيف من النحاس مأمونية . . . فاذا نضج ذلك قرب بالعوم من الشاطئ . وافرغ ذلك في آنية لطيفة والسلطان ناظر اليه . وبعث به الى السلطان فأكل من ذلك ثم يعود هو بالعوم على هيئته الاولى شارعاً في الطبخ ثانياً . ثم يدخل نصاب الكانون في فمه . ويأخذ السهم بيده مكان الكانون وهي اليد اليمنى ثم يتناول القوس من على رأسه بيده اليسرى ويضع السهم في الوتر ويستوفيه ثم يطلقه وهو عائم على تلك الحالة »[١] .

وهذه غاية الغايات في الحذق والقدرة والرشاقة .

وانفرد الاغنياء والامراء والملوك باتخاذ القبقاب من الذهب المرصّع بالجواهر قال المقريزي في كلامه على الملك الناصر محمد بن قلاوون : استجدّ النساء في ايامه القباقيب الذهب المرصعة بالجوهر[٢] : وبيع في تركة الامير علاء الدين اقبغا عبد الواحد « قبقاب وسرموزة وخفّ نسائي يبلغ خمسة وسبعين الف درهم فضة عنها زيادة على ثلاثة آلاف دينار »[٣] . ولما ماتت ابنة الناصر خوند زوجة الامير طاز « تركت مالاً عظيماً . . من جملته قبقاب مرصّع باربعين الف درهم عنها الفا دينار مصرية »[٣] وفي سنة ٧٧٤/١٣٧٢ قدم الامير منجك نائب الشام الى مصر وكان في جملة هديته للسلطان « ثلاثة قباقيب نسائية من ذهب فيها اثنان مرصّعان بالجوهر قيمتها مائة وخمسون الف درهم عنها نحو ثمانية آلاف مثقال من الذهب »[٤]

١) الروض الباسم لعبد الباسط ابن خليل الحنفي . خزانة الفاتيكان ٧٢٨ ص ٤٧
٢) السلوك للمقريزي . باريس ١٧٢٦ ص ٤٩٧
٣) « « « ص ٦٠٣
٤) « « ١٧٢٧ ص ٧٤

ومن هذه الشواهد يتضح ما وصلت اليه صناعة القبقاب بدمشق خصوصا من الاتقان والبذخ والإبداع .

واتفق احياناً أن كان القبقاب سبباً للهلاك والموت . وممن تلف به قاضي الحنفية بمصر برهان الدين ابرهيم بن الكركي سنة ١٥١٦/٩٢٢ « كان ساكناً على بركة الفيل فنزل يتوضأ على سلم القيطون . وفي رجله قبقاب فزلقت رجله فوقع في البركة وكانت في قوة ملئها ايام النيل »[1] و « لم يتفق احد يسعفه . فاستبطأوه وطلبوه فوجدوا عمامته عائمة وفردة القبقاب على السلم »[2] . وفي سنة ١٤٥٣/٨٥٧ « دخل رجل من العوام جامع الازهر . فامسكه المجاورون برواق الارياف وذكروا انه اخذ لهم قبقاباً وتكاثروا عليه وضربوه حتى مات »[3] .

ومن اغرب ما استعمل فيه القبقاب تسمير اللصوص عليه وقتل القتلة تشفياً في العقاب . « ففي خامس عشر ربيع الاول سنة ٧٧٨ (١٣٧٦ م) سُمِّر من رجال المنسر[4] ثمانية عشر على جمال وثلاثة سمرت ايديهم في الخشب

١) بدائع الزهور لابن اياس ٣ : ٤٤

٢) شذرات الذهب لابن العماد ٨ : ١٠٤

٣) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الايام والشهور لابن تغري بردي . طبعة ليدن ص ١٤٢

٤) المنسر في اللغة هو للطير الجارح كالمنقار لغير الجارح ويطلق ايضاً على قطعة من الخيل او قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير ويراد به هنا عصابة من اللصوص والسرّاق كانت تجتمع لمهاجمة البيوت والمحالّ ليلاً والعيث والفساد سُمّيت كذلك فيما يظهر اخذاً من المعاني الثلاثة المذكورة وهي بهذا الوجه غير واردة في المعاجم ولا في تكملة دوزي . وبقيت هذه العصابات الى القرن العاشر للهجرة قال ابو السرور البكري في كتابه «الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة المعزية (من خزانة الڤاتيكان رقم ٧٣٤) في كلامه على ولاية مسيح باشا من سنة ٩٨٢ الى ٩٨٧ » يقال انه قتل في هذه المدة نحواً من عشرة آلاف نفس وغالبهم من اهل الفساد لان المناسر كانت في زمن حسين باشا كثيرة فقطعها مسيح باشا المذكور ومن بعدها الى الآن انقطع أثر المناسر والسراق الا القليل (ص ٢) ثم قال في ولاية الوزير مصطفى باشا البستنجي : في زمنه كثرت المناسر بمصر وعم البلاء منهم فصارت المناسر في كل ليلة تأخذ محلاً واستمر الامر متزايداً ابداً من المناسر ورحلت الناس من وطانها (ص ٧٦)

وألبسوا في ارجلهم قباقيب خشب ثم سُمّرت ارجلهم فيها وأكرهوا حتى مشوا وهم مسمّرون كذلك وشهروا جميعاً بالقاهرة »[١] قال ابن قاضي شهبة : « ولم يسمع بمثل ذلك[٢] » .وفي سنة ٦٥٥/١٢٥٧ توفي السلطان المعزّ ايبك التركماني وكان قد تزوج بشجر الدر حظيّة استاذه الملك الصالح ثم ارسل خطب ابنة صاحب الموصل . فلما تحققت شجر الدر ذلك أغرت به الخدام في الحمام وجعلت الجواري ترفسه وشجر الدر تضربه بالقبقاب الى ان مات[٣] ثم أقيم من بعده ابنه الملك المنصور نورالدين عليّ فحُملت شجر الدر الى أمه فضربها الجواري بالقباقيب الى ان ماتت[٤] واقتدَيْن بذلك بنسا. الخليفة الظافر لما فتك به نصر بن عباس ووقع بعد هربه بين ايدي الفرنج فبعث الملك الصالح طلائع بن رزّيك يطلبه منهم وبذل لهم اموالاً . « ولما وصل سلّمه الى نساء الظافر فاقمن يضربنه بالقباقيب والزرابيل اياماً وقطعن لحمه واطعمنه اياه الى ان مات ثم صُلب »[٥] . وكذلك فعل الملك الظاهر بالملك المغيث ابن الملك العادل لما وصل اليه في مخيّمه في بيسان « امسكه وجهّزه الى مصر وكان آخر العهد به . وقيل انه جهّزه الى امرأته فضربته جواريها بالقباقيب الى ان مات[٦] ولما قتل الامير كتبغا الامير سنجر الشجاعي وزير الملك محمد الناصر رسم بان يُطاف برأسه في مصر والقاهرة « وكان اكثر الناس يكرهون سنجر الشجاعي فصاروا يعطون المشاعلية شيئاً من الفضة ويأخذون منهم الراس ويدخلون بها الى دارهم ولا يزالون يصفعونها بالقباقيب والنعال حتى يشتفوا منه »[٧]

وآخر ما خُتم به تاريخ القبقاب انه دخل في ادوات التعزير فكان يعلّق في عنق المشهَّرين ففي سنة ٨٥٣/١٤٤٩ « عُزّر شخص امشاطي وطيف به على

---

١) السلوك للمقريزي . باريس ١٧٢٣ ص ٧٤
٢) الذيل . باريس ١٥٩٩ ص ١٤
٣) عيون التواريخ للكتبي . الخزانة التيمورية ج ٢٠ : ٨٦-٨٧
٤) السلوك ١٧٢٧ ص ١٣٥
٥) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي طبعة ليدن ٣ : ٦٤
٦) روضة المناظر لابن الشحنة هامش الكامل لابن الاثير ١٢ : ١٥٣
٧) بدائع الزهور لابن اياس ١ : ١٣١-١٣٢

حمار وفي عنقه قبقاب »[١] . وفي هذا المعنى وضع امين الدين الدمشقي الصالحي الهلالي المتوفى سنة ١٥٩٥/١٠٠٤ جزءاً في هجاء بني الخطاب الذين كانوا قضاة مالكية في دمشق سمّاه « قرع القبقاب في قرعة بني الخطاب » وفيه كل عجيبة وكل مسبّة غريبة[٢] .

جاري وزراء دمشق وجرايتهم في دولة المماليك

الجاري في اصطلاح المولدين هو المال الذي كان يُطلق مُشاهرة للعمال وكتاب الدواوين وسائر رجال الدولة والدين قال ابو اسحاق الكراني يخاطب عضد الدولة :

أين الرعاية يا ابن كل مملّك رُفعت له في المكرمات منار
ان تقطع الجاري اليسير عن امرئ ردفت كتابته لك الاشعار[٣]

وهذا المعنى لم يُنبّه عليه في كتب اللغة وكان يُعبّر عنه قبلاً باسم « الرزق » وغلب عليه اخيراً في الدولة المصرية لفظ « المعلوم » و « المعاليم » وقيل في معناه ايضاً « الراتب » و « المرتّب » و « الجامكيّة » و « المقرّر » و « القرار » قال ابن العديم في كلامه على حصار الملك الناصر صلاح الدين لحلب سنة ١١٨٣/٥٧٩ « وجدّ الملك الناصر بسبب اخيه على محاصرة حلب اياماً فاجتمع اليه الاجناد من العسكر والرجال وطلبوا منه قرارهم فطلبهم فقالوا : قد ذهبت اخبازنا ونحتاج لغلاء الاسعار الى ما لا بدّ منه . . . وكان الحلبيون يخرجون على جاري عادتهم ويقاتلون اشد قتال بغير جامكية ولا قرار نخوة على البلد »[٤] والجامكية لفظة فارسية وفي معناها اليوم « الماهية » في اصطلاح العامة نسبة الى الماه وهو الشهر بالفارسية .

وكانت الارزاق فيما عدا النقود تشتمل ايضاً على مقادير من الطعام والادام

١) التبر المسبوك للسخاوي ٢٦٧
٢) خلاصة الاثر للمحبي ٤ : ٢٥
٣) معجم البلدان ٤ : ٢٤٨
٤) زبدة الحلب خزانة باريس ١٦٦٦ ص ٢٠٢-٢٠٣

والتوابل والكسوة والحوائج كان يُطلق عليها خصوصاً اسم « الجراية » و « الوظيفة » و « الراتب » ايضاً واهم ما فيها للجنود الخبز ولذلك غلب على رزق الجندي اسم « الخبز » كما تقدم من كلام ابن العديم وهو يرد كثيراً في « خطط » المقريزي وتواريخ الدولة المصرية ولابن نباته يطلب جراية خبز :

جئت الى باب الامير وظلّه وفارقت ذلّي اذ وصلت الى العز
واصبحت من جند المحامد والغنى ولا بد للجندي من طلب الخبز [١]

وقد اشار الطبري عرضاً الى هذه الارزاق في الاعصر الاولى ونقلها عن الجهشياري فقال :

« كانت ارزاق الكتاب والعمال في زمان ابي جعفر (المنصور) للرؤساء ثلثمائة درهم للرجل ونحو ذلك . وكذلك كانت في ايام بني امية وعلى ذلك جرت الى ايام المأمون فان الفضل بن سهل (وزير المأمون) وسّع الجاري [٢] وربما كان رزق احد الكتاب في الدواوين عشرة دراهم حكى يوسف بن صُبيح انه كتب كتاباً للمنصور املاه عليه ثم قال له : كم رزقك يا يوسف في ديواننا قال : فقلت عشرة دراهم فقال لي : قد زادك امير المؤمنين عشرة دراهم » [٣] وما زالت الارزاق ترتفع وتنمو مع الايام حتى بلغت التوسعة والزيادة مبلغاً فاحشاً في خلافة المعتضد والمقتدر ومن جاء بعدهما ولما خلع المتوكل على عبدالله بن يحيى بن خاقان وأهّله للوزارة « اجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم » [٤] (٦٦٧ ديناراً) . وفي خلافة المعتضد كان حامد بن العباس يتقلد فارس برزق الفين وخمسمائة دينار فجعلها المعتضد ثلاثة آلاف » [٥] واجرى المقتدر على ابي علي محمد بن خاقان وابي الحسن علي بن عيسى لما اسند الى كل منهما الوزارة خمسة آلاف في كل شهر [٦] وكذلك كان رزق الوزير ابي

١) ديوان طبعة مصر ٣٦١
٢) كتاب الوزراء والكتاب ١٤١
٣) كتاب الوزراء والكتاب ١٥٠
٤) نشوار المحاضرة للتنوخي ٨ : ١٢
٥) تاريخ الوزارة للصابئ ٨٣
٦) تاريخ الوزراء ٢٦٢ و٢٨٣

العباس الخصيبي[١] ورزق ابي الحسن بن الفرات ولما وزر ابن الفرات للمرة الثالثة للمقتدر « وفّر الجاري ولم يأخذه وتقدم بردجاري اصحاب الدواوين وكتّابهم وكتابه الى ما كان عليه في ايامه الاولى فاضعف ذلك وصار جاري ديوان السواد وكتابه مع ثمن الكاغد والقراطيس نحو سبعة آلاف دينار في كل شهر[٢] ويظهر ان هذا المقدار كان ايضاً جاري الوزارة في ايام المقتدر قال الصابئ: « عرّج ابن مقاتل الى احمد ابن يحيى كاتب الوزير ابي الحسن علي خاصة فقال له : كم يرتزق الوزير في الشهر قال : سبعة آلاف دينار قال : قسط اليوم فيها مائتان وثلثة وثلثون ديناراً وقسط الساعة نحو عشرين ديناراً[٣] ومن هذه الملحة يتضح ان رزق الوزير في اواخر الدولة العباسية في الساعة الواحدة كان يوازي رزق العامل في اوائلها في الشهر كله ولا عجب فان الارزاق كانت تتطوّر بتطوّر اسباب المعيشة واختلاف قيَم النقود وتغير وتبدل بتبدل الدول وتمكن العمال وحظوتهم او تخلفهم وقد اتفق للهلال الصابئ تفصيل جملة الجواري والنفقات في ايامه في الخلافة العباسية ساقه في كتابه تحفة الامراء (ص ١٤—٢٢) ولكنه اجمل ولم يفرد قسط كل منصب وديوان على حدة كما فعل المقريزي في الكلام على ديوان الرواتب (الخطط ٢ : ٢٤٢—٢٤٤) والقلقشندي في الفصل الذي عقده في كتابه صبح الاعشى لتعريف ارزاق الوزراء وحواشي الخليفة وارباب الرتب والقضاة وكتاب الدواوين والمستخدمين والفرّاشين والركابية (٣ : ٥٢٥—٥٢٧) ولا نعلم ان مؤلفاً غيره نبّه على مثل ما نبّه عليه ولا توسّع مثل توسّعه في تعيين الرتب والخدَم وتفصيل جاري كل منها في دولة الفاطميين ولكنه لم يتعرض لذكر ما كان يصحب هذه الجواري من الوظائف والجرايات والاكسية ففاتنا في هذا الاهمال فوائد شتى ذات بال في تاريخ الغلال والموائد والثياب وانواعها وما كان ينسج منها في البلاد او يجلب من الآفاق ولا يخفى محل ذلك كله في تعريف ماضي الزراعة والصناعة ووصف الحضارة العربية .

١) تجارب الامم لابن مسكويه ٥ : ١٥٥
٢) تاريخ الوزراء ٣١
٣) « « ٣٥١

وقد اطلنا البحث والتنقيب عما كانت عليه ارزاق النواب والوزراء بدمشق منذ انتقلت الخلافة منها الى بغداد فلا ندري اليوم كم كان جاري ابرهيم بن المهدي مثلاً حين قلّده اخوه الرشيد على دمشق وقد سكت الصفدي عن ذكر شيء من ذلك في كتابه « تحفة الالباب في من ولي دمشق من الملوك والامراء والنواب » ولم يتفق لابن القلانسي مرة الإلماع الى رسوم الدولة الفاطمية في ما كانت تطلقه لقُوّادها وامرائها في ولايتهم دمشق وقد خلا كتابه « ذيل تاريخ دمشق» من اقل اشارة الى ارزاق العمّال في ذلك العهد وغاية ما عثرنا عليه في هذا الباب قول عام لشهاب الدين العمري في كلامه على ارباب الاقلام في الدولة الناصرية في القرن الثامن للهجرة قال في مسالك الابصار :

« اكبرهم كالوزير له في الشهر مئتان وخمسون ديناراً جيشيّة(١ ومن الرواتب والغلة ما اذا بُسط وثُمِّن كان نظير ذلك ثم دون ذلك ودون دونه ولاعيانهم الرواتب الجليلة من اللحم والخبز والعليق والشمع والسكر والكسوة ونحو ذلك الى غير ذلك مما هو جارٍ على العلماء واهل الصلاح من الرواتب والاراضي المرْبدة وما يجري مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف مما لا يوجد بمملكة من الممالك ولا مصر من الامصار » ٢)

وهذه الجواري والرواتب كانت تُعيّن دون ريب في كل ولاية وتقليد وتُفصّل في التوقيع الشريف الذي كان يُرسم به لمن تولى احد المناصب في الدولة المصرية وقد حفظ من نسخ الكتابات السلطانية عدة امثال كانت تكون من انفس الآثار واثمن الذخائر لمعرفة ما كان يتعلق بتاريخ الخدم الديوانية من الارزاق والوظائف والشؤون الخاصة وما كان يطرأ عليها من تضييق او توسيع ولكن مصنفو كتب المُصطلح الشريف لم ينظروا اليها الا من الوجه اللغوي فقط ولم يحتفلوا منها الا برواية ما كانوا يعدّونه قدوة وقاعدة في منهج الانشاء واسلوب الفصاحة واطّرحوا كل ما عدا ذلك من الشروط والملحقات والفوائد الواردة فيها واهملوا احياناً ضبط السنين والايام التي كتبت

١) الدينار الجيشي مسمّى لاحقيقة وانما يستعمله اهل ديوان الجيش في عبرة الاقطاعات بان يجعلوا اقطاع عبرة دنانير معينة من قليل او كثير . . . وكأنه على ما كان عليه الحال من قيمة الذهب عند ترتيب الجيش في الزمن القديم . . . فيكون عن كل دينار اثنا عشر درهماً وهو صرفه يومئذ (صبح الاعشى ٣ : ٤٤٢-٤٤٣)

٢) صبح الاعشى ٤ : ٥١

فيها وتسمية من خوطب فيها من الرجال والاعلام فلم يخلص لنا منها الا هـذه القشور من الفقرات والاسجاع التي ذهب لبها ودرج فتها ولم يبقَ منها للمؤرخ الا جعجعة دون طحن .

وكنا قد وقفنا في خزانة باريس على مجلد من كتاب «اعيان العصر واعوان النصر» لصلاح الدين الصفدي ذكر فيه ترجمة الصاحب امين الملك عبد الله بن تاج الرئاسة القبطي الاصل وزير الديار المصرية والشامية وساق فيها نسخة توقيع سلطاني له بنظر النظّار بدمشق مكان الصاحب شمس الدين غبريال القبطي والاسلمي نظيره من انشاء الصفدي نفسه صرّح فيه بما لا مزيد عليه من البيان والتفسير بتقدار «معلوم» ناظر النظار بدمشق في ايام الامير تنكز المشهور في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن حسن الحظ ان الجزء الذي ورد فيه هذا التوقيع متقن الخط جيد الضبط عارضه المؤلف على الاصل كما يؤخذ من الكتابة التالية باوله بقلم الصفدي .

« قرأ علي هـذا الجزء الثالث وما قبله من كتابي اعيان العصر واعوان النصر الامام المحدّث البليغ نور الدين ابو بكر احمد بن علي بن محمد بن ابي الفتح المنذري الحنفي عرف بابن المفصوص نفع الله به من اصل كتابي بخطي وانا اعارض بهـذا الجزء . . . وكانت القراءة بالحائط الشمالي بالجامع الاموي المعمور بذكر الله تعالى بـدمشق المحروسه وكتب خليل بن ايبك بن عبدالله الصفدي الشافعي في سابع عشر شهر الله المحرم سـنـة ثمان وخمسين وسبعمائة (١٣٥٧ م) حامدًا ومصليًا »

ومع هذه القراءة والمعارضة لا يخلو هذا الجزء من اماكن فيها بياض او نقص او اغلاط يسيرة بعضها لا ريب من سهو الناسخ ذهل المؤلف او شُغـل عن تصحيحها عند المراجعة وبعضها وهو الاقل لا يبعـد ان يكون من قلم الصفدي نفسه على فضله وجلالة علمه وهي صدى بعض اللهجات والملاحن العامية وندر ان يسلم منها كاتب من كتبة دولة المماليك المصرية .

وقد اغفل الصفدي ذكر تاريخ هذا التوقيع ويُرجّح ان يكون سنة ٧٣٢ للهجرة (١٣٣٢ م) وهي السنة التي سخط فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون على الصاحب شمس الدين غبريال وورد فيها المرسوم للامير تنكز بالقبض عليه

ومصادرته[1] . ففيها دون شك ولي الوزير امين الملك بن تاج الرئاسة مكانه بدمشق .الى ان لقي مثل جزائه ومات تحت العقوبة سنة ١٣٣٩/٧٤٠

واتفق لنا بعد ذلك ان عثرنا على نسخة هذا التوقيع في الجزء الثاني عشر من « صبح الاعشى » (ص ٨٦–٨٩) فبادرنا لمعارضتها على نص «اعيان العصر» فاذا القلقشندي قد تصرف فيها بعض التصرف واسقط منها عدة فقرات وعبارات متفرقة واهمل ما ينيف على عشرة سطور من الخاتمة فضلًا عن القطعة باسرها التي اشتملت على تعداد « المعلوم » و « الراتب » فرأينا من الصواب والامانة ان نثبت هنا متن الاصل بتمامه لفائدته التاريخية والادبية ولاسيا انه فيا نعلم التوقيع الفرد الذي جاءت فيه صورة المرسوم السلطاني كما صدرت من قلم منشئه في الديوان دون اقل اختصار او اختلاف . قال الصفدي :

« لما رُسم للصاحب امين الدين بنظر النظار بدمشق كنت اذ ذاك في ديوان الانشاء بالديار المصرية وكتبت له توقيعًا شريفًا ونسخته :

, الحمد لله الذي جعل وليّ ايامنا الزاهرة امينًا واحلّه من ضمائرنا الطاهرة مكانًا ابينا توحّه وجده مكينًا وخصّه بالاخلاص لدولتنا القاهرة فهو (" 25 ") يقينًا يقينا وعضد بتدبيره ممالكنا الشريفة فكان على نيل الامل الذي لا يَمين يمينا وفجّر خلال خلاله نهرًا اصبح على نيل السعود مَعِينًا مُعينا وزيّن به آفاق المعالي لما دجا امر الا وكان فكره صبحًا مبينا وجمّل به الرتب الفاخرة فكم قلّد جيدها عقدًا نفيسًا ورصّع في تاجها درًّا ثمينًا واعانه على ما يتولّاه فهو الاسد الاشدّ الذي اتخذ الاقلام عرينا

نحمده على نعمه التي خصّتنا بوليٍّ تتجمّل به الدول وتغنى الممالك بتدبيره عن الانصار والخوَل وتحمد ايامنا الشريفة عليه ايامُ من مضى من الملوك الاول وتحلّ السعود حيث حلّ اذ لم يكن لها عنه حول ونشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة نستمطر بها صوب الصواب ونرفل منها في ثوب الثواب ونذخر منها حاصلًا ليوم الحساب ونمتدّ بردها واصلًا ليوم الفصل والمآب ونشهد ان سيدنا محمدًا عبده الصادق الامين ورسوله الذي لم يكن على الغيب بضنين وحبيبه الذي فضل الملائكة المقربين ونجيّه الذي اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى حجّة على الملحدين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صحبوا ووزروا وايدوا حزبه ونصروا وبذلوا في نصحه ما قدروا وعدلوا في ما نحوا وأمروا صلاةً تكون لهم هُدى ونورًا اذا حُشروا ويضوع نشرها عَرفهم في الغُرَف ويطيب نشرهم اذا نُشروا وسلّم تسليمًا كثيرًا الى يوم الدين

---

١) الرابع من المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي . باريس ٢٠٦٨ ص ٢٠

وبعد فان اشرف الكواكب ابعدها دارا واجلها سُرًى واقلها سرارا وادناها مبادًا واعلاها منارا واطيب الجنّات جنابًا ما طاب أرَجًا وغارا وفُجّرَ خلاله كل نهر تروع حصاه حاليته المذارى (° f° 26) وتحت معاطفَ غصونه سلافةُ النسيم فتراها سكارى وتمدّ ظلال الغصون فتخال انها على وجنات الانهار تدبّ عذارا وكانت دمشق المحروسة لهاهذه الصفات وعلى صفاها تَحبّ نَسمات هذه السمات لم يتصف غيرها بهذه الصفة ولا اتفق اولو الالباب الا على محاسنها المختلفة فهي البقعة التي يطرب لاوصاف جمالها الجماد والبلد الذي ذهب بعض المفسرين الى انها إرم ذات العماد وهي في الدنيا انموذج الجنة التي جا وُعد المتقون ومثال النعيم للذين عند ربهم يُرزقون وهي زهرة ملكنا ودرّة سِلكنا وقد خلت هذه المدة ممن يراعي مصالح احوالها ويرعى نجوم اموالها ويدبّر امر مملكتها اجمل تدبير ويحمي حوزتها ويحاشيها من التدمير فيسم منها غُفلا ويحلي عُطلا ويملأ خزائنها خيرًا يُجلى اذا ملأنا ساحتها خيلًا ورجلا تبيّن ان ننتدب لها من خبرناه بعدًا وقربا وهززناه مثقفًا لدنًا وسللناه عضبا وخبأناه في خزائن فكرنا فكان اشرف من نذّخر واعزّ ما نحبا كم نحي في الايام واس وكم اشد ازرًا لما وزر وكم غَنيت بهِ ايامنا عن الشمس ولياليناعن القمر وكم رفعنا راية مجد تلقاها عَرابة فضله بيمين الظفر وكم علا ذُرى رتب تنزّ على الكواكب الثابتة فضلاً عمن يتنقل في المباشرات من البشر وكم كانت الاحوال جمادى فاعادها ربيعًا غرّر به طائر الاقبال وصفر .

وكان المجلس العالي القضائي الوزيري الصاحبي الاميني هو معنى هذه الاشارة وشمس هذه الهالة وبدر هذه الدارة نزل من العلياء في الصميم وفخر باقلامه التي هي سُمر الرماح كما فخرت بقوسها تميم وتحفظت الاموال في دفاتره (° f° 26) التي يوشيها فاَقت الى الكهف والرقيم وقال لسان قلمه « اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم » .

عقم الزمان بان يجيء بمثله ان الزمان بمثله لعقيم

وتنبّه به اقوام فبانوا وبادوا وقام منهم عباد النساد فلما قام عبد الله يدعوه كادوا اردنا ان ينال الشام فضله كما نالته مصر فا يساهم فيه سواهما ولا يقول لسان الملك لغيره :

حللتَ بهذا حلّةً ثم حلّةً بهذا فطاب الواديان كلاهما

فلذلك رُسم بالامر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري اعلاه الله وشرّفه ان يُفوّضَ اليه تدبير الممالك الشريفة بالشام المحروس ونظر الخواص الشريفة والاوقاف المبرورة على عادة من تقدمه في ذلك وبمعلومه الشاهد به الديوان المعمور الى آخر وقت وهو في الشهر مبلغ : اربعة آلاف وست مائة وثلثة وسبعون درهمًا . تفصيله :

عن نظر المملكة الشريفة بالشام المحروس : اربعة آلاف ومائة وثلثة وثلثين وثلثين (١) (كذا) :

مبلغ :	الفان وسبع مائة وثلثي وثمانون وثلثين
ثمن لحم وتوابل :	الف وثلث مائة وخمسون درهماً
قمح :	غرارة ونصف

عن نظر الخاص الشريف :

مبلغ وثمن لحم وتوابله ثلثة ارطال بالدمشقي : خمسمائة واربعون درهماً

غلات عن الوظيفتين : تسع وعشرون غرارة تفصيله :

قمح :	تسع غرائر
شعير :	عشرون غرارة

اصناف المشاهرة بالوزن الدمشقي :

سكر بياض :	اثنان وعشرون رطلاً ونصف
حطب :	تسع قناطير

وفي اليوم بالدمشقي :

خبز :	خمسة عشر رطلاً
شمع :	اوقية ونصف (f° 27 r°)
ماورد :	اوقية ونصف
صابون :	اوقية ونصف
زيت طيّب (٢) :	نصف رطل

والكسوة والتوسعة والاضحية والاتبان على العادة كمن تقدمه في ذلك .

فليتلقّ هذه الولاية بالعزم الذي نمهده والحزم الذي شاهدناه ونشهده والتدبير الذي يعترف له الصواب ولا يجحده حتى تثمّر الاموال في اوراق الحساب وتربو نموّاً وسموّاً فتفوت الامواج في البحار وتفوق القطر في السحاب مع رفق يكون في شدته ولين يزين مضاء حدته وعدل يصون مهلة مدته والعدل يسر والجور .

١) في الامثال القديمة : ابرد ممن يستعمل النحو في الحساب ولا شك ان الصفدي تذكر به حين حكى لحن العامة في الاعداد . واضافة «ثلثين» زيادة لا يصححها التفصيل .

٢) الزيت الطيّب هو زيت الزيتون خاصة تمييزاً له عن بقية الزيوت ولا تزال هذه التسمية معروفة بمصر ومن الغريب عدم ذكر السمن والدهن في جملة الجرايات .

بدمّر ولا يشر بحيث ان الحقوق تصل الى اربابها والمعالم تطلع بدورها(١ كاملة في كل هلال على اصحابها والرسوم لا تُزاد على الطاقة في بابها والرعايا يجنون ثمر العدل متشابها واذا انعمنا على بعض اوليائنا بجمل(٢ فلا تكدّر بان تؤخر واذا استدعينا لابوابنا بهمّ فليكن الإسراع يخجل البرق المتألّق في السحاب المسخّر فما ادركنا الّا لأنك سهم خرج من كنانه وشهم لا يثني الى الباطل عنانه ولا عنانه فاشكر هذه النعم على منائحها وشنّف الاسماع بمدائحها متحققًا ان في الشُغُل بلوغ العز والامل وانه لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يومًا دارة الحمل فاستصحب الفرح والجذل بدل الفكر والجدل وسِر على بركة اراثنا الشريفة وقل : وفي بلاد من اختها بدل واختر ما اختارته لك سعادة (دولتنا) المؤبدة المؤيدة فطرفها بالذكاء مكتحل :

ان السعادة في ما انت فاعلهُ وُفّقتَ مرتحلًا ام غير مرتحل

فما آثرنا توجهك الى الشام الا ليأتينك المجد من هنّا وهنّا لانك اذا كنت منا في المنى فما غبتَ في الصورة عنّا وابسط املك انك اليوم لدينا (٥٠ ° 27 " f) مكين أمين ونزّه نفسك فقد آويت الى ربوة ذات قرار ومعين والوصايا كثيرة وانت ابن بجدتها علمًا وسرتها وفارس نجدتها الذي لا يقدم على امر حتى يعرف مصرفه فما نحتاج ان نرشدك منها الى علَم ولا ان نشير اليك فيها بأنملة قلم وتقوى الله عزّ وجلّ هي العروة الوثقى والكمية التي من تطوّق بها فلا يضلّ ولا يشقى فمُضِ الناجز عليها ومُدَّ يديك على مِسطّنيها والله يتولى ولايتك ويبين دريتك بالامور وعنايتك والخط الشريف اعلاه الله وشرّفه اعلاه حجة لثبوته والعمل بما اقتضاه ان شاء الله تعالى

ولا تخفى مكانة هذا التوقيع بين آثار دمشق. وقد فاتنا فيه معرفة انواع الكسوة التي كانت تطلق للوزراء. وليت الصفدي ألهم تفصيل « العادة » فيما لفائدته اليوم وغنائه في تاريخ الثياب في عهد المماليك . وكذلك جهلنا اصناف التوابل التي كانت تُجهّز بها الاطعمة لموائد عمّال الدواوين ومن العجيب انه لم يرد ذكر للفاكهة في جملة الرواتب على وفرة الاثمار بدمشق. وكان الوزراء بمصر في عهد الفاطميين تُحمل لهم في كل شهر سِلال منها وهو ما نقله الصيرفي في كلامه على امين الدولة الحسن بن عمار قال :« لما أفضت الخلافة الى الحاكم بامر الله في سنة ست وثمانين وثلثمائة (٩٩٦ م) استوذن في الجرايات التي كان

١) في صبح الاعشى « تطلع بدور بدرها »
٢) في الاصل « بجمل » وفي صبح الاعشى « بنحل »

الخيانات والمظالم ومصادرات التجار والكتاب في كل عزل وولاية وعلى الخصوص من التقادم والرشى نعم ان الامير تنكز نائب السلطنة بالشام في ايام شمس الدين غبريال كان قد منع وامتنع من قبول التقادم والهدايا على الاطلاق وانصف العامة والتجار بخلاص حقوقهم من الامراء. ولكنه ما عتم ان أصيب بنفس الداء الذي اراد استئصال شأفته قال المقريزي: «فلما كانت آخر ايامه صادر جماعة كثيرة من كتاب السرّ وغيرهم ومن الضمان والعرفاء واتخذ الاملاك واخذ عدة اوقاف من اولاد الملوك حتى كانت غلّة املاكه كل سنة مائة الف درهم»[1] ومن جملة هؤلاء الكتاب الذين استباح اموالهم فريق من اعيان النصارى كانوا في خدمة بعض الامراء وديوان الجيش اتّهمهم بانهم احرقوا الجامع الاموي سنة اربعين وسبعمائة (١٣٣٩ م) ليتمكن من نكبتهم واستصفى منهم ما يزيد على مليون درهم بعد ان افحش في تعذيبهم ورسم ان يُصلبوا ويطاف بهم يومين حول المدينة وفي الصالحية بطولها مسمَّرين على الجمال ثم امر بانزالهم وتوسيطهم اي قطعهم من اوساطهم وهم احد عشر نفرًا واضطرت حينئذ جماعة من النصارى ان تدخل في دين الاسلام[2] » فكتب السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) الى تنكز يُنكر عليه قتل النصارى وان في ذلك إغراء اهل قسطنطينية بمن يَرِد اليهم من التجار المسلمين وتلفهم ويأمره ان يحمل ما وجد لهم من المال»[3]. وهو ما يدل على ان المنكوبين كانوا من نصارى الروم الملكيين وهم اعظم فِرَق النصارى بدمشق فابى تنكز ان يرسل شيئاً من المال فغضب السلطان لذلك قال ابن قاضي شهبة. «وكانت احد ذنوب تنكز عند السلطان»[4] وما لبث ان امر بالاحتياط عليه ونكبه اشدّ نكبة

١) السلوك لمعرفة دول الملوك. خزانة باريس المجلد الاول ١٧٢٥ ص ٤٨٨

٢) عن السلوك للمقريزي ومسالك الابصار للعمري. ودرة الاسلاك في دولة الاتراك لابن حبيب وتاريخ ابن اسباط المغربي

٣) السلوك ص ٤٨٢

٤) ذيل ابن قاضي شهبة. باريس ١٦٠٠ ص ٣

الباب الثامن عشر : اذكر فيهِ عدد عضل العين ورباطه واين مواضعهُ

أمّا العَضَل فان عددهُ تسع عضلات ، وطبعهُ معتدل ، وهو الى البرودة أميل لان الغالب عليهِ العصب . وأمّا مواضعهُ فواحدة من جانب المآق الاكبر تحرّك العين الى ما يلي الانف . والأخرى في اللحاظ تحرّك العين الى جانب الصدغ . والأخرى من فوق تحرّك العين الى فوق . والأخرى من اسفل تحرّك العين للاسفل . وعضلتين (وعضلتان) فيهما اعوجاج يديران العين الى فوق والى اسفل ويمنةً ويسرةً ، وثلاثة في فم العصبة النُّورية تشدُّ فمها وتمنع من ان تتسع فيتبدَّد النور الباصر وفيها منفعة المجوَّفة ، وذلك انها تشدُّ وتربط جملة العين ، ويأتي هذا العَضَل الحركة من الروح ، والثاني من العَصَب الذي يأتي من الدماغ الى العين ويفترقان فيها ويوصل اليها قوَّة الحركة . وسأبيّن كيف يكون منشأها من الدماغ بعد قليل ان شاء الله تعالى .

الباب التاسع عشر : اذكر فيهِ امر العصب النُّوري وكيف يكون منشاؤه من الدماغ وامر العصب النُّوري المحرك وكيف يكون منشاؤهُ

أمّا العَصَب النُّوريُّ فمنشاؤهُ من جانبي خريطي الدماغ المقدَّمين فاذا نشأ لا يمضيان على استقامتها لكنهما يتعوّجان في جوف عظم الرأس ثمَّ يتصل احدهما بالآخر بالقرب من المنخرين حتى يصير ثقبها ثقباً واحداً . وذكر قومٌ انهُ بهذا الاتصال يكون حاسّة الشمّ . وقومٌ قالوا بنفس الدماغ يكون حاسّة الشمّ ، ثمَّ يتزحج كل واحدٍ منهما بالآخر ثمَّ يفترقان بعد اتصالهما على المكان حتى انهما يصيران على شكل الحآ. في كتابة اليونانيين وهو هذا : (×) ثمَّ يذهب كلّ عصبة منها الى العين المحاذية لمبدأ هذا منشأها من الدماغ ، العصبة اليمنى للعين اليمنى والعصبة اليسرى للعين اليسرى من غير ان ينقص من قوّتها شيء وهو عَصَب ليّن ، وكلما بَعُدَ عن الدماغ خلف خارجها فقط شيء يسير فاذا دخلها فانهُ يبقى على حالتهِ ليّن (ليّناً) . وأمّا انتهاؤهُ فانهُ ينتهي الى الرطوبة الزجاجيّة ثمَّ يعرض هناك وينتج ويصير شبيهاً بالشبكيّة . ومن اجل ذلك يسمّى هذا الموضع الطبقة الشبكيّة ، على ما ذكرتُهُ فيما تقدَّم .

ذلك الغشاء عروقٌ أدقّ مما فيهِ واكثر الى بطنهِ ، ثمّ تنقسم تلك العروق ايضاً باقسام شتّى ثمّ تشتبك بعضها ببعض ويصير منها غشاءٌ شبه شبكة الصيّاد . ولذلك يسمّى هذا الغشاء ، الشبكيّ ويسمّى المسحس .

وأمّا منفعة المسحس الغليظ ، فانهُ يوقي الدماغ من العظم وانهُ يلطّف فيهِ الروح . فأمّا المسحس الثاني فانهُ يغذو (يغذي) الدماغ وانهُ يلطّف فيهِ ايضاً الروح ، وذلك ان الروح الحيوانيّ يدور في التشبيك الاول ويلطف فيهِ ويرقّ ثمّ يهبط الى الغشاء الشبكيّ الذي دونهُ فيدور فيهِ ايضاً حتى يلطف هناك ثمّ يصير الى الوعائين اللذين في مقدّم الدماغ وهما بطنا التخيُّل من الدماغ اللذان يخرج منها العصبيّة ويمكث هناك حيناً حتى يلطف وتبقى الطبيعة عندما يخالطهُ من الفضول الى المنخرين ويقال لها الروح النفسانيّ . ولهذا السبب قال جالينوس : ان قوى النفس تابعة لمزاج البدَن . ثمّ ينفـذ في العصب الأجوف الى العين نفوذاً متصلاً فيكون بهِ قوّة البصر ، وذلك ان الطبيعة اذا ارادت استقصاء انضاج المادّة تحتاج لها لبثاً طويلة المدّة في الآلات التي تنقلهُ فيها . وكذلك لما كان هذا الروح النفسانيّ يحتاج من النضج الى ما هو اشدُّ استقصاء ، جعل لهُ مسالك طويلة ومنافذ ضيّقة لينضج فيها باستقصاء .

وأمّا كيف يبصر بهـذا الروح ، فهو ان يخرج من الدماغ الى العصب ويخرج الى الهواء ، كما ذكرتهُ من توسّط الجليديّة ووضع البيضيّة وغيرهـا ويتصل بالهواء الخارج ويحيط بالشيء المتصور بمشاركة النور الخـارج ، ثمّ يعود ثانيةً فينطبع في الرطوبة الجليديّة فيلتم البصر بذلك . وقـد بيّنتُ من امر الروح النفسانيّ وكيف يكون ابتداؤه بحسب الطاقة .

الباب الحادي والعشرون : اذكرُ فيه حال الاجفان

أمّا الاجفان ، فان في الجفن الاعلى ثلاث عضلات واحدة تسيلهُ او ترفعهُ لئلا يقع ثقلهُ على العين عند النوم ويوضعها بالقرب من عظم الحاجب ، وعضلتين تحطّهُ ليلاً عند النوم وعند الارادة وتحفظهُ نهاراً ، ومنفعة ذلك لئلا تتزايد على العين البخارات والغبار فيؤذي ذلك العينَ ، وموضعها من الجفن في الماقين مما يلي اصول الشعر .

وأما الجفن الأسفل فلا عَضَل فيه ، وان تحرّك فعَضَل الجسد يحرّكه .
وأما منفعتهـا وهي ان تحفظ العين في وقت النوم من التراب وفي وقت الحرّ
من حرارة الهواء والشمائم لئلا تذيب رطوبتها . وأما اشفارها فلها منفعتان
احداهما ان تدفع عن العين ما لطف من الآفات مثل الغبار وما اشبه ذلك .
والثانية ان يقوى البصر بسوادها . فهذا ما امكن ذكرهُ من تشريح العين ،
ونأخذ الآن في علاج امراض العين ، وبالله التوفيق . تمت المقالة الأولى من
تذكرة الكحالين ، والله أعلم .

المقالة الثانية

الباب الاول: في اصول ودستورات يُعمل عليها في علاج امراض العين

قد يجب على من اراد علاج شيء من امراض العين ان يكون عارفاً
باجناس امراض العين وهي ثلاثة : إمّا مرض بسيط مفرد . وإمّا مركّب .
وإمّا انحلال القوّة . وقد يقال ايضاً إمّا في القوّة الفاعلة للبصر . وإمّا في
الآلة التي يكون بها البصر . وإمّا في الحس والحركة باصنافها ايضاً وهما :
صنفان . إمّا جوهري وإمّا عرضي ، وبانواعها وهي كثيرة ، وان تُعرف كيفيّة
المرض المفرد ونوعه وكمّيّة المرض المركّب وجنسه

ويجب ان تعلم ان الامراض شفاؤها باضدادها ، والصحة تدوم بالمشابهة
والمشاكلة ، إلّا ان دوام صحّة العين يكون بما ينشّف رطوباتها الزائدة ويقوّيها
فقط ، لانهُ اذا قويت دُفعت عنها الألم ودامت صحتها ، ولذلك يقول
جالينوس : الاشياء المشبهة الكيفيّة والمنفرطة في العين تضرّ بهـا ، والاشياء
المخالفة لها تنفعها .

ويجب ان تعرف حدّ المرض ما هو ، وذلك ان حدّ المرض هو اضرار
بالفعل بلا متوسط ، وان تعرف العلامات التي تعرف بها المرض المفرد الذي هو
الحارّ والبارد والرطب واليابس والمركّب منها وما معهُ مادّة وبغير مادّة ، ولا
فرق بين العرض والعلامة إلّا في جهة الاستعمال لانها عند المريض عَرَض وهي
بعينها عند الطبيب علامة ، وان يعرف كيف تحصل المادة في العضو ، وان ذلك

يكون بخمسة اشيا. : إمّا لقوّة العضو الدافع ، وإمّا لضعف العضو القابل ، وإمّا لكثرة المادة . وإمّا لضيف القوّة المغذية . وإمّا لسعة المجاري . وقد يكون ايضاً اذا كان العضو انتقل او كانت مجاريه ضيّقة فيجب ان تنظر انما هو من ذلك بسبب المرض فيُعمل لدفع ذلك السبب ، وان ينظر ايضاً في اسباب علل العين الى كثرة المادة وقلّتها والى شدّة لذعها والى حمرة العين وكثرة الدم في العروق التي في العين وقلّتها والى الانوان الحادثة فيها والى خشونة الاجفان والى نوع الوجع ، ومما يجب ان يكون الكحال عارفاً به ايضاً ان كان غرضه افادة الصحة فهو مضطرٌ الى معرفة مادة الصحة . ومادة الصحة على ضربين : احدهما الذي يكون فيهِ الصحة وهي العين او البدَن بأسرهِ ، والأخر الذي يكون بهِ الصحة وهي الأدوية وسائر الآلات التي يكون بها الصحة . فانت مضطرٌ الى معرفة الادوية التي يُعالج بها الامراض الحادثة في العين ومعرفة قواها وفي اي مرض يُستعمل كلّ واحدٍ منها واجناسها وانواعها . واجناسها سبعة وهي : مسدِّد ، مفتّح ، مجلي ، معفّن ، قابض ، منضج ، مخدّر . فأمّا المسدّد فهي على ضربين : منها ارضيَّة يابسة ومنها ارضيَّة لزجة .

وأمّا الادوية الارضيَّة اليابسة فتصلح للتجفيف وللسيلان الحادّ اللطيف ولاسيما اذا كان مع قرحةٍ بعد استفراغ البدن والرأس وانقطاع المادة وهي كالنشا. والاسفيداج والاقليميا والتوتيا المغسول والرصاص المحرق وطين سامرس فانها تجفّف بلا لذغ . ويجب استعمالها والمادة قد انقطعت، لانها ان استُعملت قبل ذلك منعت التحليل ويُهايج (ويهيج) الوجع اكثر ، لان صفاقات العين تتمدّد لكثرة الرطوبة وربما انخرقت وتأكلت ، إلّا ان تكون في القروح او تأكُّل القرنية فانها (فانهُ) حينئذٍ يُضطر اليها لانها عظيمة النفع هنا ولا دواء لهُ غيرها .

أمّا الرطوبة الزجة فانها تدخل في ادوية العين لاربعة اسباب : الاول منها لانها غير لذّاعة . والثاني انها تغري بلزوجتها الخشونة الكائنة عن الحدّة وتغسلها . والثالث انها تبقي في العين اكثر من الرطوبة المائية ، وقد يُحتاج للربقايا في العين لئلا تضطر ان تُغلق العين بتواتر فتح الجفن . والرابع ان العين عضوٌ كثير الحسّ ، واكثر الادوية التي تعالج بها العين حجريّة لِما يُراد من

بقائها فيها وكل حس، اذا لقيَ اكثر الحسّ آذاهُ ، فلذلك اختارت الاطباء ان يُخلَط في ادوية العين اشياء لطيفة تليّن خشونتها مثل بياض البيض وماء الحلبة واللبن وماء الصمغ والكثيراء . وقد يخالف بعضهـا بعضاً ، فان لطيف بياض البيض يغسل الرطوبات بلا لذع، وتعري وتملس خشونـة العين فقط ولا يسخن بل يبرد لانهُ لا يرشح ولا يلحج في المسامّ .

وأمّا ماء الحلبة فان فيها تحليلًا واسخاناً معتدلًا . فأمّا اللبن(١) فـان فيه جلاء للمائيّة التي فيها . وأمّا الادوية التي في الجنس الثاني اعني الفتاحـة للسدد والمحلّلة فانها تصلح للبثر ، والمدّة الكائنة خلف القرنيّـة اذا ازمنت لم تحلّلها الادوية المنضجة وهي الحلتيت والسكبينج والفربيون والدارصيني والوج وما اشبه ذلك . وما يصلح للماء من هذا الجنس مثل المرارات وماء الرازيانج وبالجملة كلما يسخّن اسخاناً قويًّا من غير ان يُحدث في العين خشونة .

وأمّا الادوية التي في الجنس الثالث اعني الجلاية فمنها يسيرة الجلاء وتصلح للاثر الذي ليس بغليظ والقروح كالقليميا والكندر وقرن الأيـل والصبر ، والقليميا معتدل بين الحرّ والبرد وهو يسير الجلاء ، ولذلك هو موافقٌ لإنبات اللحم في القروح . ومنها شديدة الجلاء تصلح للظفرة (للظفر في العين) والجرب والأثر الغليظ لانهُ يلطّفها ويجلوها كتوبال النحاس والزنجار والقلقطار والنوشادر والنحاس المحرق . وهذه كلها لذّاعة .

وأمّا الادوية التي في الجنس الرابع اعني المعفنة فانها تصلح لقلع الخشونـة والجرب اذا أزمن وصلُبَ وقلع الظفرة الصلبة وهي الترنجان والزنجار والزاج .

وأمّا الادوية التي في الجنس الخامس وهي الادوية القابضة فمنها معتـدلة القبض تصلح لدفع السيلان في الرمد والبثر والقروح كالورد وبزره وعصارتـه والسنبل والساذج والزعفران والماميثا وعصارة لحية التيس (عشبة تسمّى بهذا الاسم) ودقاق الكندر . وأمّا القاقيا وماء الحصرم فانهما أقوى من هذه قبضاً ، ألا انها عصارات يسرع سيلانها في العين . ومنها ما يُقبض قبضاً شديدًا وقلَّ ما تُستعمل لان مضرّتها اكثر من منفعتها لا تُحدث في العين خشونة ، ولكنّها

(١) اظنّ انهُ يريد باللبن ، الحليب

قد يُكفى منها في بعض الادوية التي تُحدّ البصر شيء يسير ليجمع جرم البصر ويقوّيه ، وهي تقلع خشونة الاجفان كالحلّ والعفص الفجّ وقشور الكندر والبنج .

وأمّا الادوية التي في الجنس السادس وهي المنضجة لاورام العين فانها تُستعمل في الاورام والقروح في سائر آلام العين التي مع رطوبة وفي البثور والمدّة الكامنة خلف القرنيّة في الابتداء والانتهاء ، وهي المرّ والزعفران والجنديدستر والكندر وماء الحلبة والحضض الهندي والانزروت والباوزد واكليل الملك . فهذه كلها محلّلة ، والمرّ اكثر منها تحليلاً .

وأمّا الادوية التي في الجنس السابع وهي المخدّرة فتُستعمل اذا افرط الوجع حتى يُخاف على المريض من التلف ولاسيما اذا كان ذلك من تأكُّل وحدهُ وقروح ، ولا ينبغي ان تُتخذ هذه الادوية لانها تضعف البصر وربما اتلفتهُ ، يجب ان لا تُتخذ هذه إلّا عند الضرورة الشديدة ولا يصلح استعمالها إلّا الشيء اليسير منها وهو الافيون وماء اللفاح . فهذه جملة اجناس الادوية . أمّا انواعها فكثيرة .

يجب ان يعرف أوقات المرض وهي اربعة : الابتداء . والتزيّد . والانتهاء . والانحطاط . فحدّ الابتداء هو ان تكون الافعال الطبيعيّة قد نالها الضرر وتكون القوّة لم تبتدئ بعدُ في النضاج السبب الفاعل للمرض .

وحدُّ التزيّد هو ان يكون المرض يزيد ويقوى والقوّة تضعف بزيادته وتكون القوّة قد بدأت تعمل في المرض إلّا ان عملها يجري على غير ترتيب ونظام .

وحدُّ الانتهاء ، هو ان المرض يقف بلا تزيُّد وتكون القوّة قد اظهرت علامات تدلّ على قهر الطبيعة للمرض .

وحدُّ الانحطاط ، هو ان يكون المرض قد انحطّ وتحلّل وتكون الطبيعة مع انضاجها قد دفعتهُ وحلّت عقدتهُ ، فيجب ان يعالج كل واحد من الامراض في وقتٍ بجسبه ، وهو ان يستعمل في الابتداء ما يدفع فقط ، وفي الانحطاط اذا سكنت الحدّة والحرارة وتحلّل اللطيف وبقي الغليظ ، يجب ان يستعمل ما يرخي ويحلّل فقط . وأمّا في الزمانين اللذين بينهما فتكون بأدوية ممزوجة

بما يُقبض ويُحلّل ، إلّا انهُ ينبغي ان يكون مـا يُقبض في الصعود اكثر وفي الانتها، أقلّ . وكلٌ واحدٍ من هذه الاوقات لهُ ثلاث مراتب : أولى، واخيرة، ووسط . فتكون الادوية بحسب المرتبة . مثال ذلك : اذا كان المرض حارًا في الابتداء ، فيكون علاجك في اول الابتداء بمـا يُبرّد ويُقبض ويُخدّر . وفي الوسط بما يُبرّد اقلّ من الاول وفي آخر الابتداء بما يبرّد اقل ولا يكون بما يُخدّر ، إلّا ان يكون التبريد يدلُّ على الكثرة ، وقد يمنع الوجع مرارًا كثيرة اذا كان الوجع مفرطًا في الصعوبة من استعمال الادوية القابضة في الابتداء او يضطر الامر الى استعمال الادوية المسكّنة. فأمّا متى كان الوجع ليس بمفرطٍ فليس ينبغي لنا استعمالها ، فيجب ان يعلم أن ادوية العين منها من النبات ومنها من المعادن ومنها من الحيوان. فالذي من النبات منها صموغ مثل الحلتيت والسكبينج والفرابيون . ومنهـا عصارات كالماميثا والقاقيا . ومنها ثمرة كالعفص . ومنها ورق مثـل السـاذج . ومنها خشب مثل السليخة .

وأمّا المعدنيَّة فهي الشادنج والتوتيا والملح والنوشادر والبورق والزرنيخات وما اشبه ذلك .

وأمّا التي من الحيوان فبعضها من رطوباتها مثل المرارات والالبان وبياض البيض . وبعضها من اعضائها كالقرون والجندبادستر . وسوف اذكر قوَّة كل واحد من هذه الادوية وخاصيتها ومنفعتها وجميع الادوية التي تصلح للعين في آخر الكتاب ان شاء الله تعالى .

وقد يجب ان اذكر كيف يجب ان يستعمل كل واحد من هذه الادوية ، وكيف تُدقّ ، وفي اي وقت ووصف من الزمان تؤلّف ادوية العين ، وكيف أجودُ ما يكون من صنعتها فأقول :

كلّ ما اردت استعمالهُ من المعدنيّات مثل الشادنج والتوتيـا والروسختج والمارقشيثا والأثمد ، فينبغي ان تنعم سحقها وتُنخل بحرير وتربى بالمـاء وتصوّل دفعات عديدة . وما كان منها حجريَّة مثل سوار السنـد والقليميا والزاجات ، فلا تستعملها إلّا بعد حرقها في كوز حديد ، وأطلْ سحقها وتصويلها فانها أجود

وأمّا الاصداف مثل الشنج والحلزون وغيرهما فاحرقها ايضاً في كوز حديد وأطلِ سحقها وارمها بالماء وصوّلها.

وأمّا الاسفيداج فاسحقهُ اولاً واغسلهُ بالماء لئلا يكون فيه شيء من الحموضة.

وأمّا التوتيا والتوبال فيُغسل وهو صحيح بالماء دفعات.

وأمّا اللولو فاسحقهُ بالماء سحقاً جيّدًا وكذلك الروسخنج.

وأمّا السنبل فيُقرض بالمقراض ويُسحق بالدستج في الهاون.

وأمّا الاشند فيُفرك باليد فركاً جيدًا حتى يتقشّر قشرهُ الاسود ويبيض ويُطرح في الهاون ويُطرح عليهِ الماء ويُدقّ حتى يصير مثل المخ ويُجفّف ويُعاد سحقهُ.

وأمّا الزنجار فلا يكثر من استعماله فانهُ يهتك حُجب العين ويأكلها وخاصةً أعين النساء والصبيان، إلّا بعد خلطك كثيرًا من الاسفيداج معهُ.

ويجب ان تعجن الاشيافات في الربيع فانهُ احمد عاقبة، وتسحق الذرورات والاكحال في آخر الربيع حتى تصير في حدّ الغبار وإلّا كانت الادوية المضرّة بها اكثر من المنفعة.

وأمّا ما يربّى بماء الحصرم وماء الرازيانج وغيره، فيجب أن يعصر ماؤهُ ويُترك في الشمس اياماً كثيرة ويُصفّى وتربّى به الادوية دفعات.

وما كان من الصموغ مثل الأشق والسكبينج يُنقع ويُدعك في الهاون حتى ينعم وينحل.

وأمّا الصمغ العربي والكثيرا، فيُنقع في الماء ويُصفّى في خرقة ويُعجن به الادوية اذا كان منفعتهُ في الادوية، ان يجمع اجزاءهُ إلّا ان تكون في الأشياف الابيض، فان الغرض في الصمغ والكثيرا، فيهِ ان يبرّد ويغري ويملس خشونة الرمد، فينبغي ان ينعم سحقها ويجيد نخلها ويُطرحان في الهاون ويطرح عليها من بياض البيض الرقيق بمقدار ما يعجن بهِ ببقيّة الادوية ويدعكهُ بالاستج الى ان ينحلّ ويملس ويطرح عليه باقي الادوية.

وأمّا الأفيون فيجب ان يُقلى بان يؤخذ صفيحة نحاس وتحميها ويُطرح عليها الافيون مكسّرًا صغارًا ولا يكون على جمر واحد. وان يحترق فيبطل فعلهُ. واذا اردتَ اخلاط دواء فيجب ان تكون عارفاً بمنافع ذلك الدواء

ولماذا يصلح من الامراض ، فان كان من الأدوية التي منافعها كثيرة وهو جليل القدر مثل التوتيا الهنديّة وغيره ، فيجب ان يُطرح منهُ المقدار الكثير ، وان كان قليل المنافع مثل الصمغ طُرح منهُ اليسير ، وان كان حادًّا شديد القوّة مثل الزنجار والنوشادر طُرح منه اليسير ، وان كان ضعيف القوّة مثل الاسفيداج طُرح منهُ الكثير .

وأمّا الادوية المفردة تُلقى في الدواء المركّب لاسباب مختلفة ، فبعضها يُلقى بسبب المرض الذي رُكّب لهُ ذلك الدوا. مثل ما يُطرح السكبينج والحلتيت في اشياف المراير ، فان لها فعلًا قويًّا في تحليل الماء . ومنها ما يُراد بهِ تقوية الدوا. مثل ما يُطرح ماء الرازيانج في اشياف المراير . ومنها ما يُراد بهِ ان يوصل الدوا. الى طبقات العين بسرعة بمنزلة ما يُطرح المسك في ادوية العين . ومنها ما يُراد بهِ ثبات الدواء في العين بمنزلة ما يُطرح الكافور في ادوية العين . ومنها ما يراد بهِ حفظ قوّة الدوا. بمنزلة ما يُطرح الافيون في الادوية الجلّاية . ومنها ما يراد بهِ كسر حدّة الدوا. بمنزلة ما يُخلط الاسفيداج بالزنجار .

ويجب ان تختار من الادوية ما كان منها جيّدًا طريئًا لا عتيقًا ولا مغشوشًا ، وان يُسحق كل واحد من الادوية على حدتهِ ثمّ يزن من المسحوق المنخول الوزن المذكور في نسخة ذلك الدوا. ، ولا يجمع سائر الادوية ويدقّها فانهُ غلط ، لان من الادوية ما يحتاج ان يطال سحقهُ مثل المعدنيّات . ومنها ما يحتاج الى سحق قليل مثل العصارات . ومنها اذا سُحق زيادة على ذلك المقدار الذي ينبغي ان يفمل انتقل عن طبعهِ واحتدّ مثل النشا. فانهُ يُطرح في آخر الامر ، ثمّ حينئذٍ يخلط ويسحق سحقًا معتدلًا ليختلط . وان كان الدواء من الادوية التي يجب ان تُعجن ليشيف ، فيجب ان يلقى عليهِ الماء قليلًا قليلًا ويُدق لتختلط سائر الادوية بعضها ببعض وتُعجن عجنًا معتدلًا وتنشّف وتجفّف في الظلّ لئلا تنحلّ قوّة الدوا. في الشمس .

واذا عالجت العين بدواء حادّ فيجب ان تصبر حتى يزول مضضهُ وأثرهُ البتّة ثمّ تتبعهُ بميل آخر ، فان ذلك ابلغ وأجوَد من يردف بعضهُ على بعض فيبطل وَعمل الاثنين فيصير الدواء لا من الحارّ ولا من البارد ، وليكن الميل ممّلأ غليظًا

أملس. واياك ان تستعمل دواء حادًا وفي الرأس امتلاء، بل يجب ان يكون نقيًا من الاخلاط الرديئة والمؤذية، لان بقراط يقول: ان الابدان غير النقيَّة كلما غذَّوناها زدناها شرًّا، وكلما عالجت بدواء حادّ جلبت على المريض آفة عظيمة.

مطلب في التكحيل بالميل

واذا اردت ان تحطّ (تضع) الدواء في العين فافتح العين اليمين بالابهام من اليسرى والسبَّابة من اليد اليمنى وتُمسك الميل بالابهام والوسطى ثم تضع الميل من المآق الاكبر الى المآق الاصغر ثم تُنحّي السبابة ويتخفّف ابهام اليسرى على الجفن وتحطّهُ في العين بفتلةٍ فانهُ اصوب، وذلك ان الميل يماس جميع اجزاء العين من جميع جهاتها والدواء من جميع جهات الميل ومن الاطباء من يغمز المآق الاكبر برأس الميل الذي فيه الدواء، وذلك ان ذلك الموضع فيهِ ثقب وفي هذا الثقب مسامّ دقاق يصل منها الى جميع طبقات العين قوَّة الدواء في جميع اجزائها. والعين اليُسرى فتُفتح بالخنصر من اليد اليمنى والابهام من اليسرى ويحطّ الميل من المآق الاكبر الى المآق الاصغر ويفتلهُ.

وأمَّا قلبُ الجفن، فتمسك شعر الجفن بالابهام والسبَّابة من اليد اليسرى وتجذب الجفن اليك وتُكبس وسطهُ بلعقةِ الميل حتى ينقصع وينقلب وتحكّهُ باستقصا. بسكونٍ لا بعجلةٍ. فاذا قلبتَ الجفن فيكون قليلًا قليلًا ولا تُخلّنّ يدك، لا ترجع من تلقاء نفسه فانهُ رديء. واذا اردتَ فتح العين فترفع الجفن وتشيلهُ (ترفعهُ) بسهولةٍ وتردّهُ برفقٍ ولا تعجّل ردّه.

مطلب في قانون الذرور

واذا اردتَ استعمال الذرور فيجب ان تضعهُ في الماقين بين الاجفان ولا تُحطّ (يوضع) الميل الى ارض العين بل تدعهُ وتفتل الميل الى اسفل فيبقى فيها الذرور، ولا يُدخل الميل الى العين في الرمد الصعب الشديد الوجع بل يبسطهُ فانهُ أجود وانفع وأسلم.

❖

وأمَّا عند قلع الآثار فتغمز بالدواء الأثرَ وتحكّهُ به وتغرّهُ عليه فانهُ ابلغ.

وكلُّ علّةٍ معها ضربان ووجعٌ شديد فعالجها بالادوية اللينة والرطبة وبأيسر تخفيف كالرمد والقروح . وكلُّ علّةٍ عتيقة مزمنة لا وجع معها كالجرب والسبل والكمنة والظفرة والسلاق ، فبالأدوية الجلّاية المنقية على قدْرِ مراتبها وما يحتاج اليه من قوّتها . ومتى اجتمع مرضان في العين ، مرضٌ حادٌ مع مزمن ، فابدأ بالحادّ حتى ينصرف ولا تغفل عن المزمن فيقوى ثمّ تعود الى علاج المرض المزمن .

وأمّا الوجع الشديد في العين الذي يعرض من اورامها فانهُ يكون إمّا لحدّة الرطوبة التي تورّمتها وتلدعها ، وإمّا لامتلاء صفاقاتها وتمدّدها ، وإما لاجتماع رطوبة غليظة ، وإمّا لسبب رياحٍ صنانيّة منتفخة ، فان كان من حدّة الرطوبة فينبغي ان تستفرغ عنها بالادوية المسهلة لها وبجذبها الى اسفل البدن وان تغسلها ببياض البيض الرقيق . فاذا نقّيتَ البدن وبدأ الورم ينضج ، فان الحمّام نافعٌ لمثل هذه العلّة . وان كان الوجع من امتلاء الصفاقات وتمدّدها فينبغي ان يُعالج باستفراغ البدن بالفصد والاسهال وباجتذاب المادة الى اسفل بدلكِ الاعضاء السفليّة وربطها ، ثمّ بعد ذلك تُكمّد العين بالماء العذب المعتدل الحرارة . وبالجملة ان انواع التمدّد يُعالج باستفراغ البدن كلّهِ والرأس وتُجتذب المادة الى اسفل ، ثمّ باستعمال الادوية المحلّلة مثل التكميد وتقطير ماء الحلبة . فأمّا قبل استفراغ البدن فلا ينبغي لك ان تستعمل دواء محلّلًا لانهُ يجذب اكثر مما يحلّل . فان كان الوجع لاجتماع رطوبة غليظة فينبغي ان تلطّف ذلك الخلط الغليظ ثمّ تستفرغهُ . وأمّا الحادث عن الرياح المنفخة ، فان الاشياء المحلّلة نافعة لها مثل الحمّام وغيره . وربما عرض في العين وجعٌ من دمٍ غليظ يرتكب في عروق العين من غير امتلاء في البدن كلّه ، فينبغي ان يُعالج بشرب الشراب الصرف ، فانّ لهُ قوّة تسخين وتفتيح وتسفر عنهُ بشدّة حركتهِ من تلك العروق التي قد لجّ فيها وذلك من بعد الدخول الى الحمّام . فاذا عرفتَ المرض ورأيتَ العلاج لا يسرع نجحه فدُم عليهِ فانهُ ربّما كان لريحٍ متضاغطة في منافذ ضيّقة ، وربّما كان لخلطٍ شديدٍ غليظ فيحتاج الى زمانٍ طويل في تلطيفهِ وتوسيع المنافذ والمسام .

واعلم ان الجفن محمودٌ في جميع انواع الرأس كلّهِ ، ولكن ينبغي ان تكون

قوّته ، ومتى كان مع بعض علل العين صداعٌ شديدٌ مبرِّح فلا تعالجهُ حتى تُسكِّن الصدغين وذلك بعد استفراغ البدن وتنقية الرأس وتقويتــه وإلّا جلبت على المريض بلاء عظيماً .

ومتى كانت الموادّ تنصبُّ الى العين دائماً فعلاجها في نفسها باطل . فانظر اولًا هل ذلك من جميع البدن او من الرأس خاصة، فاستفرغ البدن او استفرغ الرأس . وقد تنصبُّ الموادُّ الى العين من الأوراد والعروق ، فاعمد لاستفراغها فقط . فان كانت المواد تسيل من خارج القحف فاطله بالأطلية المخفِّفة مثـل ماء العلّيق والفوتنج والشوك وتشدُّهُ بالعصابة ، فـان لم ينجح فاقطع الشريانين اللذين في الصدغين . وان كانت تسيل من داخل القحف ، وعلامتـهُ العطاس المؤذي والحكّة واللذع ، فعليك بالفصد والاسهال واستفراغ الرأس .

ومن امراض العين ممّا لا بـدَّ من استفراغ البدن مثل الرمد والقروح والسبل اذا كان معهُ ورمٌ وانتفاخ . ومنها ما لا حاجة الى استفراغ البدن في علاجهِ مثل قلع الآثار فانها تحتاج الى جلاء فقط ، وكذلك سائر الاوجاع التي لا يظهر معها امتلاء ولا انتفاخ عروق العين ولا كثرة رطوبة سائلة .

فهذا ما احتجتُ ان اقدّم ذكرهُ ، فآخذ الآن في علاج الامراض الحادثة في العين فاقول : ان منها ما يظهر للحسّ ومعرفتها سهلةٌ . ومنها مـا لا يظهر للحس ومعرفتها عسرةٌ ، بل تعرف ذلك بعلامات من الفكر الصحيح والحدس من الصناع . وإنّا نبتدئ بما يظهر منها للحسّ ، وابتدئ (في) اول ذلـك بالامراض الخفيّة عن الحسّ والله أعلم .

قد رأيت مما تقدَّم اننا أصبنا بانتقائنا من هذا المخطوط ابواب المقالة الاولى واتباعها ، المتضمنة تفصيل طبقات العين ، والباب الاول من المقالة الثانية الذي يحتوي على مبادئ ومراشد عامة تنير الطبيب وترشدهُ الى طُرُق معالجة العين بعد وقوفهِ على انواع امراضها ، وهو درسٌ لا بدّ من معرفتهِ والاحاطة بمضامينهِ . واننا نثبتُ الآن مثالًا من وصف بعض امراض العين وتقدمة علاجاتها معاً ، ليطلع القارئ على سياق هذا المخطوط الثمين ونهجهِ .

(لهُ صلة)

كتاب

مختصر تاريخ جبل لبنان . (مخطوط)

النسخة الاصلية ، وهي اثر أُنُف لم ينشر قبلُ

تأليف الشماس الشيخ انطونيوس ابي خطار المعروف بالعينطوريني

شيخ مشايخ الجبة ، وجد بطل لبنان يوسف بك كرم ، لوالدته

نشره لاول مرة ، مع درس وتعاليق

الاب اغناطيوس طنوس الخوري

الراهب اللبناني

توطئة

وقعت في حوزتنا نسخة من هذا الكتاب ، سنة ١٩٢٧ ، وهي خط «كرشوني» (اي عربي بالحرف السرياني). وكانت ملكاً لنسيبنا المرحوم الاب يوسف الياس العنداري ، الراهب اللبناني[1]. فتكرم علينا بها في دير تنوبين الشهير ، كرسي بطاركتنا الموارنة القديم . واذ تدبرنا هذا المخطوط ، وجدناه على اغلاط ، تنقص نصوصه كلمات وعبارات مما يرجرج المعنى ويستعصيه. فقابلناه على نسختين له ، الواحدة في المكتبة الشرقية للجامعة اليسوعية في بيروت ، وهي بالحرف العربي ، والاخرى «كرشونية» الخط عند احد شركاء ديرنا قزحيا الشهير ، في قرية هذا الدير القائمة قربه ، والحاملة اسمه «عربة قزحيا» . وكلتا المقابلتين لم تجدنا النفع المنشود .

١) قريته كفور العربة – شمالي لبنان – وكله المغفور له البطريرك الحويك بالكرسي البطريركي . فدبر املاكه وخدم مصالحه بمنتهى الامانة والدراية ، مدة ٣٥ سنة (١٩٠١ – ١٩٣٥) . ومن آثار ادارته الرشيدة واشرافه الامين ، قصر الديمان المظيم ، نفذ في تصاميمه الفخمة وابنيته الجبارة ، ارادة مولاه الحويك الخطير ، رحم الله الموكِل والوكيل ، واجزل ثوابهما بين امثاله الابرار .

وبتنا نتريث ونتقصى ، حتى وقعت لنا النسخة الاصلية الرسمية من هـذا الكتاب ، وبذلنا الجهد اللازم ، خلال سنة كاملة (١٩٤٤) ، حتى اشترينا هذا الكتاب الاصيل من احفاد صاحبه في عينطورين ، بخمس وثلاثين ليرة لبنانية ، واعرناه من الاهمية والاهتمام ما يستحق ، واعددناه للنشر – على ما سيلي – في اول فرصة ممكنة .

بيد ان الظروف لم تؤاتنا لذلك النشر الا عقيب رجوعنا مؤخراً الى لبنان العزيز من رحلتنا الطويلة المعهودة ، طيلة السنتين الاخيرتين ، الى اقطار اوربة واميركا . وما كدنا نطأ ارض الوطن ، في اوائل ايلول الاخير ، حتى آنسنا بزيارة صديقنا ووطنينا العلامة الجليل ، الاب اغناطيوس عبده خليفة اليسوعي ، رئيس تحرير هذه المجلة ، الذي يضفي عليها من علمه وعنايته ما ارجع لها قيمتها والثقة بها ، كما كانت في عهـد مؤسسها ومحررها ، صديقنا المرحوم العلامة الاب لويس شيخو اليسوعي ، صاحب المكتبة الشرقية والافضال الجزيلة على العلم والاستشراق ... وطلب الينا حضرة الاب خليفة شيئاً ما لمجلته هذه . فتبادر الى ذهننا حالاً « المخطوط المينطوريني » هذا الذي ننشره الآن ، فوعدناه به . واعداً به حضرته هذا المقام من « المشرق » ، بعـد ان احصاه بين مواده التي انبأ بها القراء في الصفحة الاخيرة من العدد الاخير . واردفنا وعدنا هـذا بوعد آخر ، سنحققه – انشاء الله – بنشر مخطوطات اخرى قيمة ، سيأتي الانباء بها في الاعداد الآتية من هذا « المشرق » الاغر ، والله من وراء كل عمل وقصد ، انه التوّاب الرحيم .

مؤلف الكتاب في التاريخ[١]

لقد ذكر مؤلف الكتاب اسمه ونسبه على الصفحة الاولى منه[٢] هكذا : « قد اعتنى في تأليف ونسخ هذا التاريخ الوجيز ، الشماس انطانيوس ابن الشيخ

١) كل ما نكتب عن المترجم الان ، نستمده من كتابنا المخطوط « تاريخ طرابلس وابرشيتها المارونية » . والمترجم هو من رجالات هذه الابرشية وعظامها ، الذين دبجنا لكل منهم فصلاً خاصاً .

٢) انظر الرسم رقم ١

بو خطار الشدياق ، من بيت الحاج عبد النور ، من قرية عين طورين ، في جبة بشري ، باعمال طرابلس ... »

واول من ذكر هذا المؤرخ الثقة ، العلامة الكبير المطران يوسف الدبس . فكان اسبق المؤرخين الى ذلك ، ولو باقتضاب خاطف ، اذ اخذ عن كتابه هذا حوادث مشايخ جبة بشري ، وطردهم المتاولة الحماديين منها ومن سائر البلاد كما سيأتي[1] .

ونستغرب نحن ان يغفل المؤرخون ذكر هذا الشيخ الجليل وكتابه هذا ، على رغم انه كان عميدًا خطيرًا في لبنان ، يلفت الانظار الى جاهه وزعامته. ويكفينا الدليل الصراح على ذلك ، انه كان جد بطل لبنان العظيم ، يوسف بك كرم لوالدته ، وحائزًا لقب « شيخ مشايخ الجبة » اولاه اياه اجماع معاصريه على قدره واعتباره . ولعل موقفه السياسي ضد الامير بشير ، الذي اناله حتفه – على ما سيأتي – نكب بمعاصريه عن ذكره وتدوين اثره .

ولم يعقب العلامة الدبس في هذا الامر المعتبر ، الا العلامة الاب شيخو ، فسلط من علمه شعاعاً – ضئيلًا ايضاً – على شخصية « الشيخ العين طوريني » وكتابه هذا ، وذلك في هذه المجلة (٤ ؛ ١٩٠١ ؛ ص ٧٦٩) حيث اقتطف نبذة من التاريخ عن اصل الاسر النبيلة في لبنان ، من امراء ومشايخ ، امثال الامراء : المعنيين والتنوخيين ، وبيت علم الدين ، والشهابيين واللمعيين ، والارسلانيين ، وآل عساف وسيفا حكام غزير . ثم المشايخ الحماديين ، وامراء الكورة (الايوبيين) والمراعبة (في عكار) ، وآل خازن وحبيش ودحداح ، والضاهر (حكام الزاوية) وبيت العازار[2]

وحذا حذو الاب شيخو ، صديقنا البحاثة الجليل الخوري اسطفان البشعلاني ، في كلامه عن والدة بطلنا كرم ، الست مريم ابنة المترجم[3] . – ثم جئنا نحن ، مع حقارتنا ، نضع على المنارة هذه الشخصية اللبنانية الفذة ،

---

١) المطران الدبس ، تاريخ سورية ، مجلد ٨ ، ص ٥٠٣ و ٥٠٤ .

٢) الاب شيخو ، المشرق ٤ (١٩٠١) ص ٧٦٩ – ٧٧٥ و ٨٢٠ – ٨٣٧ .

٣) الخوري اسطفان البشعلاني ، لبنان ويوسف بك كرم ، طبعة سنة ١٩٢٥ ، ص ١٠٥

فاخرجناها الاخراج الوافي من طي الخفا، والمجهول الى حيز العلم والاشراق ، اولاً في كتابنا « المشايخ آل الشتر » طبعة سنة ١٩٤٨ ، ص ٢١ ، حيث خصصناها بتفصيل لا بأس به ، كان الاول من نوعه . وها نحن نغتنم الان فرصة نشر هذا الكتاب ، فنفي مؤلفه الجليل حق الايضاح والتعريف

اصل المؤلف واسرته

بين معلوماتنا في كتابنا المخطوط ، « تاريخ طرابلس وابرشيتها المارونية » ، ان هذا الشيخ كان حاكماً اقطاع قريته عينطورين وما يليها ، وارثاً ذلك عن ابيه الشيخ مخايل ابي خطار ، واجداده[1] . واسرة هؤلاء المشايخ الاقطاعيين هي عريقة في عينطورين . جدها الاعلى عبد النور . هجر لبنان الى دمشق ، نزولاً عند محن وظروف . ولما اجتاح سورية ، سنة الف واربعمائة م ، الطاغية تيمورلنك ملك التتر الشهير (١٣٣٥—١٤٠٥) ، وفتح دمشق منزلاً باهلها ضروب النكبات والاهوال ، وانهزم معظم سكانها الى المواطن الآمنة ، هربت اسرة عبد النور الى برمانا دمشق فنزلتها حيناً . ثم يمت لبنان موطنها الاصلي . وقطن احد افرادها ، عبد النور بن جرجس عبد النور ، قرية عينطورين في سقي اهدن من اعمال جبة بشري .

واشتهر من احفاد عبد النور ، الشدياق توما فاطلق اسمه على سلالته « بيت الشدياق » . ومن هؤلاء تحدر المشايخ آل ابي خطار ، ولم يزالوا الى يومنا في عينطورين . ومن اشهرهم الشيخ مخايل بو خطار ، والد المترجم الشيخ انطونيوس ، وشقيق الحاج رفول ، جد المشايخ آل رفول في قرية اجبع قرب اهدن ، الذين منهم الست مكتيلدا والدة غبطة البطريرك الحالي مار انطون عريضه الكلي الطوبى ، واختها الست طروز والدة المثلث الرحمات المطران بولس عواد ، رئيس اساقفة قبرس واحد مشاهير عصرنا ، وهما ابنتا الشيخ يوسف الحاج رفول . ونبغ من آل رفول ايضاً احد رجالات لبنان واقطابه ، الاباتي يوسف رفول رئيس عام رهبانيتنا اللبنانية (١٩٠٤—١٩١٠)

١) تاريخ سورية المذكور ، المحل نفسه .

ومن ابناء عبد النور ايضاً ، بيت عيسى مخول وبيت رزق ، في قرية بنشعي ، موطن الموقعة الشهيرة في حرب يوسف بك كرم والدولة العثمانية في ٢٨ ك٢ ١٨٦٦ .

ومن دلائل وجاهة مترجمنا هذا ، اولاً لقبه « الشماس » . وهذا لعمري تقليد عريق في لبنان الماروني ، اذ كان الرؤساء الروحيون ينعمون على مقدمي لبنان ، وبعض حكامه الاخرين واعيانه النبلاء ، بدرجة الشدياقية او الشماسية ، ويرقونهم اليها استكمالاً لدواعي اجلالهم في اعين رعاياهم اولاً ، وادماجاً لهم في مصاف الاكليروس ، فيتوفر لهم حق الجلوس معهم في خورس الكنيسة ، تمييزاً لهم عن عامة الشعب . ولذلك نرى التاريخ الماروني ينطوي على كثيرين من حكام لبنان خلال الاجيال ، حاصلين على هاتين الدرجتين الاكليريكيتين المقدستين ، امثال الشدياق يعقوب البشراني ، اول مقدمي بشري الايوبيين حول سنة ١٣٩٧ م ، والشدياق الشيخ انطانيوس ابن الرز (الضاهر) حاكم زاوية رشعين – لبنان الشمالي – في عهد البطريرك الدويهي (١٦٧٠–١٦٠٤)[1]، والشدياق سركيس ابن الخازن[2] ، والشماس فرنسيس كرم ، جد والد بطلنا يوسف بك كرم[3] ، ثم مؤلف هذا الكتاب ، وقد سمى نفسه بالشماس ، كما تقدم ... وغيرهم كثيرون ... والشماس في الكنيسة المقدسة هو كالكاهن في توزيع بعض الاسرار واقامة بعض الرتب ، والزامه بتلاوة الفرض الكهنوتي تحت طائلة الخطأ المميت ، مما يشكل دليلاً آخر على اعتصام المترجم بحبل الدين والتقوى .

ويزيد ايضاً في خطورة مؤرخنا هذا ، كونه والداً لام اللبنانيين في عهدها ، الست مريم ابي خطار كرم ، والدة بطل لبنان الكرمي العظيم . وكانت مشهورة بحصافة عقلها ، وكبر اخلاقها وفضيلتها ووقارها ، تساعد عقيلها الشيخ بطرس كرم على حكم اقطاعة اهدن وما يليها ، واستقبال عظماء الشرق

١) الدويهي ، تاريخ الطائفة المارونية ، طبعة رشيد الشرتوني ١٨٩٠ ، ص ٤٤١

٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، طبعة الاب توتل اليسوعي ١٩٥١ ، ص ٣٥٧

٣) كتابنا « البيت الكرمي في اهدن ... » طبعة ١٩٣٥ ، ص ١١

والغرب في البيت الكرمي امثال الفونس دي لامارتين، وابراهيم باشا المصري الفاتح الشهير وغيرهما ... على ما هو مفصل في كتابنا «البيت الكرمي في اهدن مزار العظماء ...»، ونشأت ولدها، بطلنا الاعظم، على ما يوافق لبنان من كل الوجوه، فكان من امره ما يعرفه لبنان وسواه، ويذكره له مدى الدوران بمنتهى الاعتزاز والمباهاة ...

وفوق ما تقدم، خطورة اخرى كانت لهذا الشيخ الشماس، استمدها اولاً من كرم محتده البارز في ثراء اسرته الوسيع، وقد كانت املاكها تملأ الشمال: قرى ومزارع، كقرية كفرفو قرب كرسي مطرانية طرابلس في كرمسده، وغيرها من القرى التي حررها اهلوها وتملكوها ... ثم من اثره الخالد بارزاً في كنيسة سيدة عينطورين، وهي اروع كنائس عصره في لبنان، شادها شيخنا هذا وجهزها بالاثاث الوافي، واغناها بالاوقاف ...

اما لقبه «شيخ مشايخ الجبه»، فيقول فيه الرواة نقلاً عن معاصريه، ان اهل بشري عصوا يوماً على الامير بشير الكبير، وابوا تأدية خراج زاده على البلاد. فوكل الامير الى الشيخ انطونيوس امر اخضاعهم على ما يرى. فاضطلع الشيخ بالمهمة وحل المشكل من وجه اعجب الامير ووافق الاهلين، مدللاً على بطولة واخلاص وحنكة ورشاد. فكافأه الامير بذلك اللقب «شيخ مشايخ الجبه» ولا يزال مشهوراً به الى ما شاء الله.

نهايته ووفاته

تكافأت اطماع الحساد الاشعبية، واقدار الزمان، فاوصلت شيخنا هذا — على رغم ما تقدم له من مكانة ومهابة ومجد — الى نهاية كانت مأساة فاجعة ارتجت لها البلاد، وما زالت ترجع اصداءها المدوية على السن التقليد والنقل. هذا التقليد — وهو اجماعي في موطن المترجم والشمال — يقول ان شيخ المشايخ هذا — ولت له خطورة مكانته، وما كان له من جاه ونفوذ وثراء، السعي لدى مصطفى آغا بربر «متسلم» طرابلس وبعض اعيان هذه المدينة ليستأثر بحكم الشمال. ودرى به الامير بشير فجابهه بتشديد النكير

والنهي الزاجر ، وهدّده باشد العقاب صرامة ، آخذًا عليه عهدًا مغلظًا . والمعروف ايضًا ان المترجم كان منحازًا وصهره الشيخ بطرس كرم ، حاكم اقطاع اهدن وما يليها ، ووالد يوسف بك كرم ، مع مصطفى بربر الآنف الذكر ، الى حزب اولاد الامير يوسف شهاب ، اخصام الامير بشير ومزاحميه . ولا يزال ذكر ذلك يتردد في الشمال الى اليوم[1] .

واخيرًا تمادى حساد المترجم في الوشاية به ، فاقنعوا ابا سعدى ان محسودهم يعمل مع صهره المذكور على سلخ شمالي لبنان عن الامارة واتباعه الى طرابلس ، ليتسنى له بسط نفوذه فيه والاستئثار بمقدراته ، وان بعض اعيان طرابلس يؤازرون الشيخ وصهره لدى « الاستانة العلية » . ففار غضب الامير بشير فوران المرجل ، وجاء برجاله الى الجبة فاعتقل الشيخ انطونيوس هذا وصهره الشيخ بطرس كرم ، واقتادهما مكبلين بالاصفاد ، بعد ان غرّمهما بخمسمائة كيس ، والكيس خمسمائة غرش اذ ذاك . واذ بلغ بهما الى قرية عين بطرام — مسقط رأس الشيخ شارل مالك ، وزيرنا المفوض حاليًا في واشنطن — افتدت الشيخ بطرس سيدة افرنسية بالمال اللازم ، فاطلق الامير سراحه ، واكتفى بالمترجم ، فسجنه في قلعة جبيل ، وامر بقتله من دون محاكمة ، عاهدًا بتعذيبه الى بعض دروز من بيت عبد الملك اذاقوه امرّ العذابات بضعة ايام ، ثم وضعوه على حديد تتأجج تحته النار ، واصموا آذانهم عن عويله ، وصخّروا اكبادهم حيال شيخوخته الطاعنة ووقاره المهيب ، حتى لفظ انفاسه ضحية الطمع والاستبداد والهمجية وافدح الاوجاع !! . . . ودفن في جبيل .

---

١) لا يجهل المؤرخون وعارفو الامور تلك الحزبية الهوجاء ، التي كانت بين الامير يوسف شهاب ونسيبه الامير بشير الكبير ، انتصر فيها هذا الاخير الانتصار الكامل ، فكان من ضحاياها اولًا : الامير يوسف ومدبره الشيخ غندور السعد ، وسمعان البيطار ، وغيرهم . . . سنة ١٧٩١ ، ثم عميد لبنان الشيخ جرجس باز الشهير واخوه الشيخ عبد الاحد ، خليفتي خالهما الشيخ سعد الخوري في رعاية حزب الامير يوسف ، وتدبير اولاده حسين وسعد الدين وقاسم . والشيخان البازان قتلهما الامير بشير في ساعةٍ واحدة سنة ١٨٠٧ . ثم ثمل اعين اولاد الامير يوسف وقطع السنتهم ، مبعدًا اياهم عن نيابتهم ، على ما هو مشهور ومفصل ايضًا في كتابنا « تاريخ مصطفى آغا بربر » الذي سنشطه بالطبع قريبًا انشاء الله .

اما تاريخ وفاته فهو مدون في آخر كتابه هذا ، في جدول وفيات اثبته هو ، كما سيأتي ، حينما نصل من نشر هذا الكتاب الى هذا الجدول ، حيث واصل احد معاصريه من اهله او غيرهم اكمال الجدول فكتب عن وفاة المترجم ما نصه : « سنة ١٨٢١ توفي انطانيوس الشدياق في ١٢ ك١ نهار الاربعة في مدينة جبيل بانطش الرهبان اللبنانيين من بعد ما طلع من الحبس».

على ان هناك معاصرًا جليلًا لمقتل الشيخ العينطوريني هذا ، وشاهد عيان عالمًا لاحداث زمانه ، هو العلامة الشدياق متى شهوان ، من بلدة غوسطا بكسروان (١٧٩٦–١٨٧٩) ، معتمد البطاركة : يوسف حبيش (١٨٢٠ — ١٨٤٥) ، ويوسف الخازن (١٨٤٥–١٨٥٤) ويولس مسعد (١٨٥٤–١٨٩٠)، في المجمع المقدس برومية العظمى . وقد ترك مذكرات له دوّن فيها وقائع عصره في لبنان وغيره ، منها مقتل المترجم اثر ثورة شمالي لبنان على الامير بشير المعروفة « بعامية لحفد » سنة ١٨٢٠ . ورواية متى شهوان تتفق جوهرًا مع التقليد المتقدم ، وتختلف عنه تفصيلًا وظروفًا كما سيبين . وقد نشر هذه المذكرات الخوري باسيليوس قطان[1] وكيل رهبانية الشويرية الملكية في رومية ، وذلك في مجلة «كوكب البرية» المحتجبة للرهبانية الانطونية المارونية ، في سنتها الاولى (١٩١١ ، ص ٤٧٢–٥٠١)

مقدمات هذه المأساة ومسبباتها

ويجدر بنا هنا ، قبل ان نورد ما خص مقتل العينطوريني من مذكرات متى شهوان هذه ، ان نترك كاتبها المعاصر يحدثنا ، بلغة عبارته في زمانه ، عن مقدمات تلك المأساة اللبنانية ومسبباتها ، قال ما نصه[2] :

« في مناصفة السنة ١٨٢٠ ، ارسل عبدالله باشا ، متولي منصب عكا ،

١) مطران بيروت الملكي الكاثوليكي سابقًا ونزيل رومية العظمى حاليًا

٢) صفحة ٤٧٦–٤٨١ من مجلة « كوكب البرية » المذكورة اعلاه . وهذا النص قد وضعنا له – نحن – كل ما لزمه من فواصل ونقاط ، ورجوع الى السطر ، تيسيرًا لفهمه من الوجه الاسهل .

فطلب من الامير بشير الشهابي ، حاكم جبل لبنان ، مبلغاً باهظاً من المال . فلما ان الامير لم يستطع الاعتفا. من تأديته هذه الجرية الغير الاعتيادية ، عزم على ان يستجرها من اهالي البلاد والاديرة ، ولكن بنوع يفوق على ما طلبه الباشا بهذا المقدار ، حتى ان الفقير الذي لا يملك شيئاً اصابه ما ينيف على المائة غرش ، عدا الاكلاف الاخر التي تندفع للحوالية ، وخلا ما اختلسه المتوكلون على جمع المال ، والفوايد التي سلبها التجار والدافعون المال لطالبيه منهم – وبالنتيجة قد افتقر من هذا الظلم اغلب سكان الجبل المتوسطي الحال، فناهيك اذاً عن الفقراء الذين لم يستثنوا من هذه الغايلة . ومع كل ذلك لم يصر الاقتناع بهذا فقط ، بل ان حاكم الجبل المذكور ، عقب هذا الامر ، ارسل فطلب الاموال الاعتادية ، كالميري ، عشرة اضعاف زيادة عما كانت في اصلها القديم ، حتى بلغ الخراج ايضاً ضاعفه .

« فمن الحادث الاول والثاني ، ومما سلف قبلاً وتأتى حالاً ، نفرت قلوب سكان لبنان واضطروا الى رفض الخضوع لحاكمهم ، وارتبطوا حينئذٍ معاً ، وعملوا قومة عامية ، واجتمعوا نحو من عشرين الفاً ، في محل قريب لسيف البحر يقال له انطلياس من معاملة بيت شباب ، وقاموا عليهم رأساً واحداً من مشايخ بيت الخازن يدعى فضل ، اسماً لا فعلاً . وهناك رؤسا. العامية مع رأسهم المشار اليه ، قطعوا يميناً امام ايقونة القديس الياس ، بألّا يخون احدهم الآخر ، وان يكون سعيهم خاصة لاجل الصالح العمومي ، وان يرجعوا الاقلام الميرية الى اصلها ، ويخففوا سائر المظالم الاخر ، ويزيلوا البلص والجرائم .

« هكذا على هذا النوع اتفقوا ، وعزموا على ان يرفعوا الامير المشار اليه من الحكومة ، ويحكموا خلافه . فلذلك ارسلوا معتمداً مصحوباً بعرضحال الى باشا عكا ، به يشكون له حالهم وعجزهم عن دفع الجرايم ، مقررين عدم امكانهم على الثبات تحت حكم الامير بشير . فالباشا قبل تشكيهم ، وبعث فاحضر اليه رأسهم الشيخ فضل ، واخلع عليه ، جاعلاً اياه رأساً للعامية . فلما الامير بشير رأى ذاته في الخطر ، ارسل وسايط ليصطلح مع اهل البلاد . واذ لم ينل اربه ، التزم للفرار مصحباً معه راس امة الدروز ،

الشيخ بشير (جنبلاط) الى نواحي حوران . حينئذٍ ارسل عبدالله باشا فلبّس الخلاع للامير عباس الشهابي ، جاعلًا اياه حاكمًا على البلاد ، ولبس معه ايضًا الامير وحسن اخاه الامير سليمان ، ليكونا مسعفين له في تدبير الحكومة .

« الا ان العامية لم ترضَ ان هؤلاء الثلاثة يكونوا حكامًا على البلاد ، ما لم يحلفوا قبلًا بتتميم كل ما صار عليه القسم من العامية ذاتها : فلذلك حلف المذكورون ، واعدين بالتتميم وعدم الخيانة . لكن لا هولاء ولا اولئك وقفوا على حفظ حلفانهم ، بل نكثوا به . وبعد مرور عدة اشهر ، شرع الحكام الثلاثة ان يحدوا (يحذوا) حدو الامير النازع ، ويجرموا البلاد كما قبلًا .

« فلهذا ابتدأت القومة من جديد ، حتى ان بسببها استهنز (استنهز) الامير بشير فرصة وكاتب البعض من رؤساء العامية الموجودين في الشوف والمتن ، لا (لكي) يتحدوا معه ، واعدًا برفع كافة الاسباب التي من اجلها صارت القومة . فلما هولاء الروس جابوا بالايجاب ، توجه حالًا الى عكا ، ولبس من جديد على البلاد ومن الباشا ، وكان ذلك في سنة ١٨٢٢ . ثم من هناك توجه الى تحت الحكومة المدعو دير القمر ، واستقبله اهل البلاد بالفرح والسرور . حينئذٍ انفرد الحكام الثلاثة كل الى مسكنه مظهرين الرضى في الخارج برجوع الامير بشير ، لكن في الباطن ممتلين حنقًا وغيظًا ، لخسارتهم حلاوة التأمر والنهي والامر .

« ثم اجتمع الامير بشير بتقدمي بلاد الشوف والمتن ، الذين كانوا من جملة روس العامية ، وبمعزل عن متقدمي بلاد كسروان ، وبلاد جبيل والبترون والجبة ، اتفق معهم وراضاهم ، واعدًا اياهم بان يخفف عنهم المظالم . فالمذكورون انوا (قبلوا) معه مرتضين بتوفيق صالحهم ، ولم يبالوا بصالح اهالي باقي البلاد . فبهذا خانوا باليمين الذي حلفوه سوية ، ومعهم خان ايضًا الشيخ فضل الخازن ، مرتضيًا بعلاقة تعينت له .

« فلما اهالي كسروان وجبيل والبترون والجبة شاهدوا تلك الخيانة ، تحزبوا معًا ، واظهروا العصاوة وعدم الطاعة للامير المذكور ، وتجمعوا بمكان يقال له لحفد ، من معاملة جبيل ، واخذوا ان يكاتبوا اعيان البلاد ، والامرا الثلاثة المار ذكرهم ، ليتحدوا معهم ، ولم ترجع مكاتبتهم فارغة ، لان هؤلاء

ارتضوا لا بل كانوا منتظرين وقوع هذه الفرصة .

« اما الامير بشير ، فلمعاينته ان التحزبات ضده تكاثرت وتجسمت ، خشي من ان المرة الثانية تكون اشر من الاولى . ولهذا ركب وصحبته نحو من الفين عسكري ، متوجهاً الى بلاد جبيل ، ليخمد نار الانقسام والتحزب ، اما قهراً ان قدر ، واما رفقاً ان استطاع . ففي مروره على حدود مقاطعة كسروان ، بعث فاستدعى اليه البعض من الاعيان الذين لهم صوت في العامية ، ورغب ان تداول معهم ، وطلب منهم ان يسعوا لدى الجمعية بالصلح ، واعداً ان يرفق بمجالهم ، جاز الى مقاطعة جبيل بالقرب الى مكان اجتماع القوم ، حيث هناك وجد الجمعية معتصبة ضده بعدد يفوق على عسكره ، قاصدة ان تصلي نار الحرب عليه . حينئذٍ اخذ ان يرمي وسايط للمهادنة ، حتى ان اتصل متنازلاً معهم ليسجل الشروط التي هم يرغبون كتابتها . اما هم فبرعونة وعدم فطنة ، ليس انهم لم يرتضوا بالمهادنة ، بل ابتدأ جهلاؤهم ان يرموا النار على صيوانه حيث كان نازلاً . وهكذا على هذا المنوال اضطرمت الحرب بين الجهتين ، ووقع جملة قتلا من الفريقين ، وباتت الغلبة على اهل العامية ، مع انهم كانوا اوفر عدداً من الفريق الآخر .

« الا انهم تجمعوا ثانيةً في اليوم المقبل ، وازدادوا عدداً ، وجروا بأثر الامير بشير الذي كان بالامس بائن ذلك المكان ، وتوجه الى ساحة مدينة جبيل التي لم يقدر ان يدخلها لانها كانت بيد العصاة ، وهناك مربعمل متاريس لحماية ذاته ، وبعث فطلب من الشيخ بشير الدرزي لان يجمع عساكر من بلاد الشوف ، ويسرع لمعنته . فهذا لم يتباط عن اجابة مطلوب الامير . بالحال جمع نحو من عشرة آلاف واقتادهم ، مسرعاً في سيره . واذ كان ماراً بالقرب من وادي شحرور ، شعر بان الامير سلمان مع اخيه الامير حسن ، كانا كاتبا اعيان كسروان ليوافوهما بعسكر الى نهر الكلب ، لكي يحجزوا معاً مرور الشيخ بشير ، ويصدوه عن التوجه لمساعدة الامير ، كما بالحقيقة كان ذلك اكيد ، لانه كان وافاهما نحو من خمساية نفر الى النهر المذكور ، ارسل جوقة من عسكره وكبسها ليلاً ، وبالكاد امكنها النجاة من يدهم ، وفروا هاربين الى قاطع بيت شباب .

« اما اولئك الاناس الذين كانوا يترقعون موافاتها الى نهر الكلب ، فلما رأوا اعاقة ورودهما ، بدون ان يعرفوا مـا جرى لها ، رجع اغلبهم كل الى بيته ، ولم يبقَ هناك الا نحو من ماية وخمسين نفرًا . فهولاء بعد ان اضرموا نار الحرب غلطاً ضد الشيخ بشير ، بنحو ساعة من الزمان ، ولم يمكنهم ان يصدوا اجتيازه ، فروا هاربين من وجه العدو ، وقتل منهم شابان بكى عليهما الجمع ، وقتل ايضاً واحد من العدو . »

« ثم اجتاز العسكر ، ونهب زوق مصبح التي على كتف نهر الكلب ، وامسك احد الكهنة يدعى الخوري نوهرا من راس المتن[1] . هذا كان اتى لاستقبال الاميرين المقدّم ذكرهما ، وكان ينهض همة اهـل كسروان ليصدوا اجتياز الشيخ بشير . فلما احضروه امام هـذا الشيخ ، امر بقتله وحريقه على شاطي البحر . من هناك زحف المذكور بعساكره . وحينما وصل الى جبيل حيث كان ينتظره الامير ، انهزمت العامية . وبالوقت ذاته غزت العساكر بعض الضيع ، واتبعوا النهب بالحريق ، واستأسروا اناساً كثيرين من العامية . وحينئذ الامير بشور الشيخ بشير افحش بتجريم (تغريم) تلك البلدان ، وافقر اناساً كثيرين.

« ثم من هناك زحف الامير بالعساكر نحو بلاد الزاوية ، ومنها الى جبة بشري . غير انه التقى صعوبة كلية ندخوله بلاد الجبة ، لان اهاليـها اظهروا المصاوة ، غير مريدين اقتباله . ولقد كانوا بصعوبة منعوه عن الدخول لولا يرمي عليهم وسايط البعض من الاكليروس الغال ، الذين اقنعوهم بالقول ان قصـد الامير والشيخ هو المرور ليس الاقامة . وهكذا بهذه الحيلة استطاع الدخول ، واستقام نيفاً عن شهر زمان .

« ولكيلا اطيل الشرح ، اقول ان الدثار والفواحش المرتكبة من العسكر الدرزي المطوّح العنان ، في تلك المدة ، لا يمكن رقمـها في قلم . وبالاختصار اقول ، ان المساكين اهل بشري اصبحوا بفقر لا جبر له ، وانكسر ناموسهم (كذا) ، بعد ان كانت ارضهم بكرًا لم تدوسها رجل غريبة . ثم بعد ان

[1] هو الخوري نوهرا ابي جوده من دير الحرف ، قرب راس المتن ، حسب تحقيق حضرة البحاثة العلم الخوري اسطفان البشلاني .

المخطوط واصليته

ويبين الوهم صراحاً في ما ادعى الطيب الاثر، الاب شيخو[1] ان نسخة مكتبته الشرقية لهذا الكتاب بالخط العربي، هي الاصلية . ولا يرتاب اي عاقل في اصلية نسختنا هذه، اولًا لخطها الكرشوني الدارج في عهد المؤلف اكثر من العربي، ثم لحفظها ذخيرة عزيزة عند اولاد المؤلف واحفاده الى يومنا، في موطنهم عينطورين، حيث اتصلت الينا . وفوق ذلك ايضاً ما على آخرها من حواش ومذكرات بخط المؤلف عينه، امثال جدول الوفيات المعهود وغيره، كما سيأتي، واقرار نساخيها الثلاثة، المدونين اسماءهم في آخرها[3] الذين عهد اليهم المؤلف بتبييضها — على اثر فراغه من تأليفها — فكتبوها في داره، وتحت نظره ورعايته، واحدهم من عينطورين نفسها ونسيب المؤلف، والآخران من اهدن وكفرصغاب المحاذيتين لعينطورين، على ما هو مبين من نص الخاتمة.

وكان وهماً صراحاً ايضاً قول الاب شيخو في المحل المذكور، ان المؤلف بدأ تأليف كتابه هذا في شباط ١٨١٩، وانجزه في ت٢، ١٨٣٥ . فان نص الختام هنا صريح ينفي اي ادعاء بالخلاف . ويظهر ان الاب شيخو استند في قوله هذا الى الكلمة الاخيرة من الصفحة الاولى[2] القائلة : « وكان الابتداء في ٢٠ خلت من شباط ١٨١٩ » وقد فاته ان يفطن لان « الابتداء » هذا كان بنسخ الكتاب لا بتأليفه، على ما هو واضح كل الوضوح .

وكذلك ينتفي قوله ايضاً — رحمه الله — « ان المؤلف انجز كتابه ١٨٣٥ » وذلك بتعيين وفاة المؤلف سنة ١٨٢١، على ما ينطق به جدول الوفيات المعهود، كما تقدم وكما سيجيء .

مواد الكتاب

ان مواد هذا الكتاب منظومة كلها في فهرس كامل يغنينا عن تفصيلها،

---

١) المشرق ٤٠ : ٣٦٩-٠٠

٢) انظر الرسم رقم ٢

٣) انظر الرسم رقم ١

سيأتي اثباته عما قليل . فنبدأ الآن باثبات نص الرسمين المصورين (رقم ١ ورقم٢) . ثم نعقب ذلك بالفهرس ، ونتبعه بنص الكتاب ، مع ما يبدو لنا من ايضاحات وتعاليق ، واضعين لكل ذلك ما يلزم من حواش ونقاط وفواصل واهلّة ، ورجوع الى السطر ، مما لا عهد به للمخطوطة . ونضع ايضاً بين هلالين مقرنين هكذا [ ] ارقام صفحات المخطوط الاصلية ، وهي منسرة من أ الى ق (اي من واحد الى مائتين) اي مائتي صفحة ، ما عدا صفحة المقدمة المصورة في الرسم رقم ١ وورقتها ملصقة على جلد الكتاب من الداخل ، ثم صفحتان وتسعة سطور تحويان الفهرس . وطول الكتاب ٢٤ س . وعرضه ١٧ . واليك الآن نص المقدمة في الرسم رقم ١ :

(بالحبر الاحمر) بسم الله الواحد الازلي وعليه اتكالي
وبه ثقتي وهو عوني

(بالحبر الاسود) قد اعتنا في تاليف ونسخ هذا التاريخ الوجيز ، الشماس انطانيوس ابن الشيخ ابو خطار الشدياق ، من بيت الحاج عبد النور ، من قرية عين طورين في جبة بشري ، باعمال طرابلس الشام . وقد قاسى من جرا ذلك اتعاباً جزيلة في مدة طويلة . حتى قدر انه يطلع على كافة التواريخ الموجودة في جبل لبنان ، من نصارى واسلام . قد دام في هذا العمل والتعب مدة ستة عشر سنة حتى قدر ان يصفه كل جملة بما يناسبها ، لاجل المطابقة والمساواة لبعضه . وقد لقبه بمختصر تاريخ جبل لبنان . (بالحبر الاحمر) وكان (بالاسود) ذلك بمساعدة ومناظرة ومطالعة قدس السيد الجليل ، والمعلم الفاضل النبيل ، المطران يوسف اسطفان ، معلم ومثقف مدرسة عين ورقة .

(بالاحمر) وقد جرى ذلك بايام رياسة البار الجليل ، مار يوحنا بطرس البطريرك الانطاكي ، الحلو كنوتاً وعملاً دامت رياسته امين .

(بالاحمر) وكذلك (ثم بالاسود) في ايام رياسة قدس السيد المعتبر ، المطران جرمانوس (ثابت) مطران ابرشيتنا يومئذاً ، الثابت كنوتاً وامانتاً ، دامت سيادته امين .

(بالاحمر) وقد كان ذلك (ثم بالاسود) في ايام تولي وحكومة سعادة امير الامراء الفخام ، وهام الحكام العظام ، الامير بشير قاسم الشهابي الافخم، ادام الله تعالى دولته زماناً طويلاً آمين . . .

(بالاحمر) ثم اني (بالاسود) انا مؤلفه المذكور اسمي اعلاه ، اترجى واتأمل من كل قاري وناظر الى هذا المختصر المذكور، ان وجد فيه غلطة ام زهقة ، لا يلوم حقارتي بذلك ، لكونني لست اهلاً الى عمل مثل هذا . وبما اني نقطة وجيزة من ابحار المعلمين الجزيلة ، كذلك هذا المختصر ، كما قال الفيلسوف الحكيم ان الكتاب يدل على معرفة كاتبه . ونحن بالنسبة لا نوازي احد المؤلفين ، بل قصدنا نسخ هذا المختصر تسلي وقت ، واطلاع ما يمكن اطلاعه. وكان الابتدا (بنسخه) في ٢٠ خلت من شهر شباط سنة ١٨١٩ م.

نص الرسم رقم ٢ وهو ختام الكتاب ونهايته

قد تم نسخ هذا الكتاب ، المختصر اللبناني ، نهار الاربعة الواقع في اربعة ايام خلت من شهر آب الذي هو من شهور سنة الف وثمانماية وتسعة عشر مسيحية ، المساقبة (الموافقة) الى ثلاثة عشر يوم خلت من شهر شوال الذي هو من شهور سنة الف ومايتين واربعة وثلاثين هجرية . وكانوا النساخ في هذا الكتاب، الشماس اليشع الشدياق من قرية عينطورين ، والشدياق نعمة باسيم من قرية اهدن ، والياس قسطنطين من قرية كفرصغاب . وكل منهم كتب جزءاً ، تم

فهرس الكتاب

[١] (بالاحمر) علم فهرس ما يتضمن هذا الكتاب من التواريخ الذي فيه عدة اوجاه (اي ارقام الصفحات) .

. صفحة

(بالاحمر) اعلم

(ثم بالاسود) ايها الاخ الحبيب الواقف على هذا الفهرس، اننا عملنا كامل الجهد في اختصاره على هذا الصفا (هذه الصفة اي هذه الحال). لانه لو نكتب كل جملة وخبرية ، لطال بنا الشرح . واذا قصدت اطلاع جملة ام خبرية ، اطلبها من المكان الذي يناسبه حسب المساقبة، كما ذكر اعلاه . (بالاحمر) تم تم.

تاريخ ابينا آدم

[١] (بالاحمر) قال الكتاب المقدس (بالاسود) ان الله تعالى خلق ابانا آدم في الفردوس الارضي، ناحية الشرق ، نهار الجمعة ، في سادس ساعة من النهار . وقال بعض العلما : انه خلق آدم في شهر اذار الذي هو الشهر الاول ، بالشهر واليوم الذي تبشرت به مريم العذرا . وبالشهر واليوم الذي انصلب به السيد المسيح . واستقام آدم في الفردوس بالبر الاصلي ثمانية ايام ، اعني من نهار الجمعة التي خلق بها ، الى نهار الجمعة الاتية . وحين خالف آدم امر خالقه ، واكل من الشجرة ، كما يوضح ذلك الكتاب المقدس ، طرده الله تعالى من الفردوس . وقال بعض العلما : انه طرده الى مغارة الكنوز قرب الفردوس واستقام آدم جملة سنين ينوح ويبكي على خطيته . وبعد مابة سنة من عمره

اولد قاين وهابيل . وبعد ماية وتسعة وعشرين سنة قاين قتل هابيل . وبعد قتل هابيل ، ولد له ولده شيث عوضه . وشيث اولد اولادًا ، ومنهم احنوخ الذي ارتفع عن وجه الارض ، وهو باقي حيًا الى الان . وكان ارتفاع احنوخ سنة ٩٨٧ للخليقة .

وقاين ايضا اولد اولادًا . ومن اولاد شيث ، خلق نوح الذي هو الثامن من اولاد آدم. وعاش آدم تسعماية وثلاثين سنة ، ومات بشيخوخة صالحة ، ودفن في مغارة الكنوز . (بالاحمر) وبعد ذلك ، حين ذلك الجيل تمردوا في الخطية ، ما عدا نوح وبنيه ، اراد الله ان يجلب طوفاناً على الارض ليبيد العالم . وشاء الباري ان يبقى اناساً لاجل تجديد العالم . وامر نوح البار ان يصنع سفينة . وحين بدأ نوح في عمل السفينة ، كان عمره خمساية سنة . وكان اولد اولاده : سام وحام ويافث . ودام في عملها ماية سنة . وحين ابتدا في عملها ، كان تاريخ (بالاحمر) سنة ١٥٥٦ . وبعد ان اكملها ، دخل نوح وبنيه ، ونسا بنيه . وادخل معه السفينة من الطيور والبهايم ، كما يخبر الكتاب المقدس . وكان طولها ثلاثماية دراع ، وعرضها خمسين دراع ، وعلوها ثلاثين . وهي ثلاث طبقات. وحينئذ [٢] نزل الطوفان على الارض سنة ١٦٥٦ . وكان نوح ادخل معه عظام آدم الى السفينة . واستقام المطر يهطل على وجه الارض اربعين يوم. واستقام في السفينة سنة وعشرة ايام . وبعد جف الماء عن وجه الارض ، خرج نوح ومن معه من السفينة ، وقدم قرباناً لله . وحينئذٍ اقسم الارض على اولاده . فاعطى سام قسم بلاد اسيا ، وسوريا الكبيرة ، وسوريا الصغيرة . واعطى حام اقليم مصر وفونيقي حد العاصي ، ولحد انطاكية ، اي الشطوط البحرية. واعطى يافث بلاد اوربا ، اي بلاد الغرب وما يليها ، حد اسلامبول ، اي البحر الاسود ، وهلم جرًا . واعطى سام الجمجمة بما انه الاكبر . وجرى ذلك في العهد سنة ١٧٥٧ .

في ذلك الزمان ، تملك نمرود الذي هو اول ملوك العالم. ومن هناك ابتدت الملوك ، والصنايع والشرايع ، وعلم الفلك . وكان في ذلك العهد تعمر برج بابل ، الذي به تبلبلت السن الخلق ، وكان ابتدا عمارته سنة ١٦٥٧

ولما مات نوح ، كان عمره تسعماية وخمسين سنة ، بعد الطوفان بثلاثماية وخمسين سنة . فتكون سنين الخليقة ، الفين وست سنين . وفي سنة ٢٠٤٨ ولد ابراهيم اب الآباء . وهو اول من عرف الله من بعد جيل نوح. ومن بعد ستين سنة من عمره ، دعاه الله من بين النهرين الى ارض كنعان ، وعرّفه بنواميسه ، ومشى بها . وولد له ابنه اسحق من بعد ماية سنة من عمره، سنة ٢١٤٨ . وكانت حياة ابراهيم ماية وخمس وسبعين سنة . ومات بشيخوخة صالحة ، في سنة ٢٢٢٣ للخليقة . وبعد مولد اسحق بخمسة وسبعين سنة ، دعاه الله للتقدمة ، وافداه بالحمل ، وعاش اسحق ماية وثمانين سنة ، وتوفي سنة ٢٣٣٣ ، بعد ان اولد عيسو ويعقوب .

ولما كان عمر يعقوب خمسة وعشرين سنة ، اختلس البركة من ابيه [٣] اسحق . وبعد ذلك اولد يعقوب اباءنا الاولين الاثني عشر منهم يوسف العفيف الذي رأى الاحلام سنة ٢٣٧٦ . وباعوه اخوته الى تجار مصر سنة ٢٣٨٩ . واستقام في خدمة فوطيفار عشر سنين . وحُبس من جرا تهمة حرمة سيده ؛ البري منها ، ثلاث سنين ، ثم اخرجه فرعون من الحبس ، لكي يفسر له احلاماً رآها وملّكه على مصر وما يليها . وبعد تملكه ، ارسل احضر اباه واخوته الى مصر سنة ٢٤٠٣ .

واستقاموا بني اسرائيل في مصر بكل راحة ماية واربع سنين . ولما مات يعقوب في مصر ، كان عمره ١٤٧ سنة. وحين مات يوسف في مصر، كان عمره ماية وعشرة . بعدها ابتدوا المصريين يقهروهم ويضايقوا عليهم . فالتزم موسى هرب من جور المصريين الى ارض كنعان . وبعد حين ما ، ظهر له الرب في العليقة بطورسينا ، وامره ينزل يخلص شعبه من العبودية . فاطاع امر الله ونزل الى مصر ، هو ونساه واولاده. واستقام في نزاع فرعون اثني عشر سنة ، واخرج شعب الله من مصر ، بعد اقامتهم بها مايتين واربع عشر سنة فيكون خروجهم سنة ٢٦١٢ . وعالهم موسى في البرية اربعين سنة . وحين اشرف على ارض الميعاد ، توفي موسى . وفي تلك السنة دخلوا بني اسرائيل الى ارض الميعاد .

وبعده اقام شمشون الجبار سنة ٢٨٨٧ . ثم تملك شاول سنة ٢٩٦٩ . وبعده تملك داود ، وكان له من العمر خمسة عشر سنة . وكان تملكه سنة ٢٩٩٠ . ودام في الملك اربعين سنة . ثم تملك ابنه سليمن سنة ٣٠٠٥ . وبعد ان تملك سليمن بخمسة سنين ، ابتدا في عمارة الهيكل الذى كان احضر له ابوه داود ، كافة لوازمه . ودام في عمله ثمانية سنين . وكان هيكلاً ، كما يشرح عنه الكتاب المقدس . وكان ذلك سنة ٣٠١٨ للخليقة .

وقام اليا النبي ، وكان ارتفاعه عن وجه الارض سنة ٣١٣٦ . وقام بعده اليشع النبي . وقاموا انبيا جملة ، واحد بعد واحد ، كما يوضح عنهم الكتاب المقدس [٤] ، الى ان اتى السيد المسيح في عهد اغوسطوس قيصر سنة ٤٠٥١ للخليقة ، كما قال بارونيوس . وقال بعض المورخين انه كان تاريخ العالم ، ازود من ذلك ، وقال غيره اقل . ولكن الاصح ما قاله هذا المعلم . ويلزمنا التصديق له ، لكون الكنيسة المقدسة قابلة هذا الرأي .

واما شرح تجسد المسيح وحياته وعجايبه والامه ، وموته وقيامته وصعوده ، عدلنا عنه ، لكون الكتاب المقدس والاباء القديسين تشرح عن ذلك بالكفاية وتعلن عن الرسل وحلول الروح القدس عليهم وتفريقهم للبشارات ، وعن جلوس بطرس في كرسي انطاكية ، ونقله الى مدينة رومية ، وعن خلفايه الى يومنا هذا ، فلا تحتاج الى شرحنا . لانه اولاً يطيل (يطول) الشرح ، ولا امكان الى ذلك .

ثم يذكر غريغوريوس ابن العبري في تاريخه ، ان السيد المسيح اعتمد في ليل الاحد ، ام ليل الاربعة ، في ستة كانون ، وانصلب نهار الجمعة في ١٤ من قمرية الشهر الاول الذي هو ادار ، وكان تاريخ العالم سنة الاربعة الاف ومايتين وعشرين . ويقول ايضاً (ابن العبري) انه رأى في تواريخ السبعين معلم ، الذين فسروا الكتاب المقدس لملك مصر ، انه كان تاريخ العالم حين تجسد المسيح سنة ٥٥٨٦ ، والله اعلم .

يذكر المؤرخ ان السيد المسيح طبعت صورته امرار شتى بانواع شتى . اولاً طبعت في منديل ، وسلمها للقديسة وارينا يوم صلبه . ثانياً طبع صورة يديه

ورجليه في بستان، حين كان يصلي قبل صلبه . ثالثاً طبع صورة رجليه في الصخرة الذي صعد عنها ، في طور تابور . رابعاً وجد في بلاد الشرق حجر من يشم[١] مصور فيه وجه حياً تاماً مكللاً بالشوك . خامساً يوجد في شجرة ، المدعوة موسى ، صورة صليب ، وعليها مصلوب .

يقول مؤلف المنارة ، اي البطريرك اسطفان الدويهي ، ان الخشبة التي انصلب عليها السيد المسيح ، خرجت مع آدم [٥] من الفردوس ، واخذها نوح ، ومنه سام وملكيزادق ، حتى وصلت الى موسى ، ومنه الى سليمان . ويذكر ايضاً ان القبر كان ليشوع ابن نون ، وصار لسيدنا يسوع المسيح من واحد الى واحد ، الى ان صار ليوسف يوليطي ليدفن فيه يسوع . ويذكر ان سمعان الشيخ ابن يشوع ، ابن يزاداق الكاهن ، عاش خمساية وخمسين سنة ، وهو احد التنين والسبعين ، الذين ترجموا التوراة ، ونقلوه من العبراني الى اليوناني لملك مصر . وان سمعان لما انتهى بالتفسير الى نبوة اشعيا ، حيث يقول ان العذرا تحبل وتلد ابناً ، فبقي مشككاً ، وخشي ان الملك ينكر هذه الآية . فاتاه صوت بانه لا يذوق الموت حتى يعاين ابن العذراء ؛ فعاش اربعماية سنة الى ان جاء المسيح .

سنة ثلاثة واربعين للمسيح ، عندما كانوا اليهود مجتمعين من كل البلدان ، طيطوس ملك رومية حاصر اورشليم ، وشد عليها الحصار حتى اكلوا بعضهم بعض . ثم فتح المدينة قهراً ، ودكها الى الارض ، وحرق هيكلها ، ولم يتركوا فيها حجر على حجر . ويذكر يوسيفوس المؤرخ اليهودي ، انه كان في عدد الموتى والقتلا احدى عشر كرة . والذين استأسرهم تسع كرات وسبعة الاف . وكان بدو الحصار من نيسان الى تسعة في آب . والمومنين كانوا في سلامة . وسبب سلامة المومنين ، حين كانوا اليهود مجتمعين من اقاصّ الارض الى اورشليم ، في العيد حسب عوايدهم ، طردوا المومنين ليلا يتنجسوا منهم . وفي هذة البرهة ، حضر الملك طيطوس وحاصر اورشليم ، وكانوا المومنين غايبين عن المدينة ، فخلصوا لاجل هذا السبب . ويذكر ايضاً (يوسيفوس)

١) اليشم لفظة فارسية معناها حجر قريب من الزبرجد ، لكنه اصفى .

في تاريخه ، انه في سنة الف ومايه وتسعين ، الملايكة حملت بيت السيدة من الناصرة الى مدينة الاردن ، في بلاد النصارى ، وهو باقي الى الآن على العمارة الذي كان فيها في الناصرة .

[٦] علم التواريخ

(بالاحمر) المدن والقلع الذين معمرين سابقاً ، وانقلاب اساميهم -

(بالاسود) تاريخ قلعة بعلبك

يذكر صاحب التاريخ ، اي البطرك اسطفان الدويهي ، ان قلعة بعلبك في جبل لبنان ، اقدم من جميع البنا الذي على الارض . اعني ان قاين ابن آدم ، حين اعتراه الارتعاش ، امر في بناها في ستة مايه وثلاثة وثلاثين لكون العالم (للخليقة) ، ولقبها باسم ابنه احنوخ ، واسكن فيها الجبابرة والمهترجية (اصحاب السفاهة والشعوذة) . ولكثرة فواحشهم ، ارسل الله طوفان الماء على الارض . وبعد الطوفان ، ارسل نمرود الجبار وجددها . وبعده سميت بعلبك بالنسبة الى باعال اله الموابيين والسورة .

ثم ان سليمن ابن داود نصب فوق القلعة قبة ، ورسم بها دايرة الشمس في ابراجها ، وتكنت في مدينة الشمس . ثم ان سليمن بنا قلعة تدمر في البرية ، وهي عظيمة البنيان جداً . واخذ لها ماء في قنا عجيب من بلاد بعلبك ، مسافة ثلاثة ايام ، وباقي رمنها الى الان ، تتقاطر الناس الى ان يروها ، لعظم بنيانها . وفي سنة ١٦٥٧ للخليقة ، اجتمع نسل نوح واولادهم وارادوا ان يصنعوا لهم برجاً لكي يصالوا (يصلوا) به الى السماء ، بزعمهم وخوفهم من طوفان ثاني . وعمروا به مدة سنين . وهم بهذا العمل ، فرّق الله السنتهم ، حتى ما عاد ولا واحد يفهم مَن الآخر . حينئذٍ تفرقوا في العالم . وكل منهم توجه الى مكان ، شرقاً وغرباً . وبدد الله فعلهم بسو نياتهم .

لبنان على مفترق الطرق[1]

هل يستطيع ايجاد بناء اجتماعي وطيد ؟

٢ — المعضلة الزراعية

بقلم الاب اندره نوجنيسل اليسوعي

تثير الزراعة في لبنان الحديث معضلة اجتماعية تفوق اهميتها اهمية معضلة عمال الصناعة بسبب كون الشعب زراعياً في الدرجة الاولى كما سيجيء معنا حتى اصبح استقرار البلاد السياسي وازدهارها الاقتصادي مرهونين في الآتي وقبل اي امر اخر بتنظيم تعاون الفلاحين تنظيماً سليماً .

ويبدو انه من الاهمية بمكان ان نتوقف خاصة وبانتباه على المعضلات الكثيرة التي تضعها امامنا الآن اوضاع لبنان الزراعية .

ولقد كانت العادة حتى السنين الاخيرة عندما كانوا يتحدثون عن الزراعة في هذه البلاد ان يخلطوا في دراسة واحدة بين سورية ولبنان . اجل ان بين البلادين لشبهاً فاقتصادياتها تبدوان في بعض المناحي كأن احدهما متمّ للآخر على ان هذا الامر ليس ألا مغالطة في عين اللبناني لان وجهة النظر السورية تختلف أيّما اختلاف عن وجهة النظر اللبنانية .

وفي الساعة الراهنة لقد قضت مصادفة الامور السياسة بفصل الاقتصادين فلذلك دُعينا الى النظر في المعضلة اللبنانية على حدة وتحت شكل خاص .

ولا بدّ لمن يطوف لبنان من ان يرسخ في ذهنه ان البلاد ليست بالاجمال ذات املاك كبرى على نقيض بقية بلدان الشرق الادنى ولا يصلح فيها للزراعة الكبرى الا سهل البقاع وحده وربما جزء من سهل عكار لان تكوينها اشبه بالسهول السورية الكبيرة المجاورة لحمص وحماه وحلب . ولقد فرض وضع لبنان الجغرافي الضيق على البلاد تجزئة الاستثمار الزراعي فيها . اما جملة مساحتها فعشرة آلاف كيلومتر مربع وعدد سكانها فيناهز المليون والمائتي الف نسمة اي بمعدل

١) راجع المشرق ٤٥ : (١٩٥١) ص ٢٧٦-٢٩٣ ، معضلة عمّال الصناعة للمؤلف نفسه .

مئة وعشرين شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد. واذا كانت سلاسل جباله الرائعة تغدق عليه مباهج لا مثيل لها فانها قد انتزعت من يد المزارع مساحات واسعة.

والارض الصالحة للزراعة في لبنان مساحتها ٢٥٠٠ كيلومتر مربع لشعب مزارع يناهز عدده الـ ٧٠٠ الف ساكن. مما يجعل كثافة السكان في الكيلومتر المربع الواحد ٢٨ شخصاً. ومن النظر الى هذه الاوضاع ندرك ان المملكة اللبنانية لن تستطيع [illegible] ان تكون عظيمة التجزئة.

ولو شئنا فهم طبيعة القضية الاجتماعية الخاصة الناجمة عن هذه الاوضاع لكان لا مندوحة لنا عن الالماع الى هذا الاعتبار الاساسي.

وبمقدورنا ان نقسم بايجاز لبنان الى ثلاث مناطق زراعية يتميز بعضها عن بعض كل التميز: الاولى منطقة ساحل البحر [illegible] والثانية هضبات السلسلة الساحلية والثالثة السهل الداخلي القائم بين لبنان [illegible] الغربي ولبنان الشرقي. فالمنطقتان الاولى والاخيرة هما منطقتا السكان [illegible] الثانية فتعيش على ماضيها وتسير الى الاقفار من اهلها.

وتختلف هذه المناطق الثلاث من حيث انها آهلة بالسكان ومن حيث بنيتها الاقتصادية والاجتماعية تميزاً ظاهراً. [illegible] منطقة الساحل [illegible] كان معظمها قديماً مغروساً من الاشجار التي لا تفتقر الى [illegible] كاشجار الحمضيات والزيتون والتين والكرمة [illegible] بيد ان [illegible] التي نفذت في خلال السنوات الاخيرة قد [illegible] زراعة المواد [illegible] اغراس [illegible] الى جانب الاشجار القديمة [illegible] الارض فشديدة التجزئة. و[illegible] السكان الاصليين منذ [illegible] عاماً جمهور من [illegible] الذين اجتذبتهم صورة حياة اشد سهولة [illegible] اوفر ثروة [illegible] حوال[illegible] حتكاك [illegible] الصغار والحول[1] [illegible] سكان مدن الساحل القريبة المتواصل الى انصاف مدنيين فارتفع مستوى معيشتهم كما يظهر الآن عن مستوى حياة بقية مزارعي البلاد. واذا ما تسلقنا منحدرات الجبل عرتنا الدهشة من المجهودات التي بذلها الفلاح

١) الحَوَل جمع خوليّ وفي القاموس: الخولي هو الراعي الحسن القيام على مال صاحبه وقد استعملناها بمعنى المرابع

على ممر القرون ليستر مزروعات هزيلة بالسفوح الوعرة الحصباء . « فالجلول » التي انشأها بقوة ساعديه تتدرج مرتفعة عدة كيلومترات . وفي بعض القرى ترتفع رجوم الحصى التي انتزعها من الارض الى اعلى من بيوتها وتغطي مساحات اوسع من مساحات الاراضي المزروعة . وثمت اراض كثيرة مستثمرة على هذه الشاكلة لا ترويها الا مياه الامطار شتاء ، ويستحيل على الفلاح احياناً ان ينشئ حول منزله حديقة البقول التقليدية التي تخوله تأمين خضار اسرته . ولذلك كان عليه ان يكتفي بمحصولاته من الزيتون والتين والعنب . فكان مستوى معيشة هؤلاء الجبليين منحطاً كل الانحطاط . وتبين من تحقيق قام به رجال اختصاصيون سنة ١٩٣٨ ان دخل المزروعات في بعض قرى الجبل يبلغ ١٥ ليرة لبنانية للشخص في السنة . وقد كانت اغراس التوت وتربية دود الحرير تزيد في الماضي دخله زيادة محسوسة حتى كانت المزاحمة الاجنبية فقتلت عملياً صناعة الحرير فاقتلعت اشجار التوت واقفلت « الاخصاص » التي كانت معدة لتربية دود القز . ومنذ ان وضعت الحرب اوزارها تجدد السعي لانشاء الزراعة الجبلية فغرست اشجار التفاح العديدة والاشجار المثمرة في المناطق التي كان بالاستطاعة ريها فيها . واننا لنتمنى ان تتكلل هذه المجهودات بالنجاح وينتعش وضع الاسرة الجبلية ، ومما يجب ان لا يعزب عن ذهننا هو ان الفلاح اخذ يغادر قريته ليقيم في الساحل او في المدينة او يسافر الى المهجر وذلك بعد ان اصبحت حالة الامن لا ترغمه على اللجوء الى معاقله الجبلية . ومما لا ريب فيه ان اكثر من ثلث السكان لا يزال متمسكاً باراضيه الجبلية وان حياتهم قد تكون تعيسة لو لم ترسل المساعدات العزيزة بصورة مستمرة من اعضاء العيلة الذين هاجروا الى المدن او الى افريقية واميركا .

واذا ما اوغلنا في الداخل وعبرنا في الربيع الجبل واشرفنا على المنحدر الشرقي رأينا قائماً امامنا مشهداً قلما يحاكي جماله جمال بحيث يخيل الينا ان ننتقل الى بلاد جديدة لدى رؤيتنا سهل البقاع ممتداً امامنا كبساط سندسي اخضر طبع عليه تنوع مزروعاته المختلفة مجموعة كاملة من الاخضرار المتلالئ تحت اشعة الشمس .

ولئن بلغنا منطقة الملكيات الكبرى فلا نخدعن بها اذ تعترضنا فيها اشد اوضاع الفلاح تناقضاً فالى جنب كبار الملاكين يعيش اتعس الفلاحين الذين

تغلغلت بينهم جمهرة من صغار المستثمرين ومتوسطيهم ولم يعدموا حيلة لنيل نصيبهم من ذلك القرص المثمر .

وهذا السهل الذي كان يُعدّ في العهد الروماني من اهراء روما قد اجتاحته المستنقعات في العهد العثماني ولاسيما في جنوبه . اما اليوم فقد استردّ خصبه القديم واصبح صالحاً لشتى ضروب المزروعات وسيزيد ثروته اليوم انتشار زراعة القطن .

ويؤخذ من هذه الصورة العامة الخاطفة ان مختلف طبقات الشعب المزارع اللبنانية تتمثل على الشكل التالي :

عدد قليل من كبار الملاكين لا يستثمرون الا جزءاً قليلاً من الارض المزروعة . وجماعة من متوسطي الملاكين وصغارهم وعدد كبير من الخَوَل « المرابعين » وفئة من العمال الزراعيين هي حقيرة لو قيس عددها بمثيلتيها في سورية ومصر . ومما لا مندوحة عن ملاحظته هو ان معظم العمال والعاملات الزراعيين الذين يأتون الى الاشتراك في الحصاد وقطاف العنب وجني الاثمار ينتسبون الى عيال صغار الملاكين المجاورين او انهم يفدون من الجبل او من المناطق الفقيرة التي يملكون فيها منازلهم وقطعة صغيرة من الارض .

شوائب الزراعة اللبنانية الحالية

مما لا شك فيه ان مجهودات كثيرة قد بذلت منذ ٢٥ سنة لتحسين الزراعة اللبنانية وكانت لها نتائجها . ومع ذلك فقد اتفق جميع الاختصاصين في الشؤون الزراعية على التأكيد ان محصولات فروع زراعة عديدة كانت اقل مما تستطيع ان تعطيه ، كالحنطة مثلاً التي كان باستطاعة انتاجها ان يصبح اربعة اضعاف عما هو عليه .

ولسنا ندّعي كفاءة الاختصاصي الفني بالزراعة فلذلك ندع امر التبسط في ذكر الذرائع الآئلة الى تحسين الزراعة للاختصاصين في هذا الباب بيد انه غير خاف حتى على الذين يجهلون العلم الزراعي ان نجاح الزراعة هو الاصلاح الاول الذي ينبغي لنا تحقيقه اذ باستطاعة مجهودات جميع الفلاحين المتسقة مع مجهودات الدولة ان تؤدي الى زراعة اوفر جدوى والى نتيجة هامة في الحقل الاجتماعي : اي انها تفضي الى رفع مستوى حياة الفلاحين . ومن هذه الناحية

لزوم النظر الى المعضلة الزراعية فنستميح للنفس الحق بالاشارة الى اهم العقبات التي تحول دون تقدم الفلاح الاجتماعي :

— استثمار ثروات البلاد الطبيعية استثماراً غير كافٍ .
— عدم وجود رؤوس الاموال لادخال الاساليب الحديثة في الاستثمار .
— نقص تعليم الفلاح تعليماً فنياً وجهله .
— تنظيم اسواق الاستهلاك الداخلية والخارجية تنظيماً سيئاً .
— عدم وجود تشريع ملائم للحماية .
— فقدان روح التعاون بين اعضاء الجمعية الزراعية .

الثروات الطبيعية

في سبيل الاقتصار على الجوهري فقط لنجهر بالقول ان الثروة الكبرى الرئيسية للزراعة في الشرق الادنى هي الماء . ولبنان حصن للماء ان صح القول . ولقد قال احد المهندسين المائيين ختاماً كلامه بعد ان درس قبل الحرب طبيعة لبنان من هذه الناحية دراسة مفصلة : ان الجبل اللبناني يشبه اسفنجة مفعمة ماء وفي باطن ارضه كميات احتياطية كبرى منه ومجار ذات ثروة مدهشة . ولكن لا بدَّ من البحث عن الماء في باطن الارض وعن استثمار ماء الشتاء استثماراً علمياً حيال تعذر وجود اليد الجبارة لضغط هذه الاسفنجة لاستثمار الماء الراشح الى ابعد حد . وما عدا ذلك ثمة خطوة واسعة في هذا الباب لا مندوحة عنها في سبيل السير الى الامام .

وفي الواقع ليست الارض المروية الا ثلاثين الف هكتار من مئتي وخمسين الف هكتار من الاراضي القابلة للزراعة على حين ان الفائدة البسيطة الناجمة عن ماء الامطار كما يدلّ على ذلك المقياس المائي تمكن بكل سهولة ريّ مئة الف هكتار مما يستدعي اولاً احياء شبكة المياه اللبنانية احياء منتقاً بعمل تشترك فيه الدولة مع ذوي رؤوس الاموال الخاصة وفي شرقي السلسلة اللبنانية قد افضى تنظيم بركة اليمونة الى تحسين زراعي ملحوظ في منطقة بعلبك .

ان نهر الليطاني المنحدر انحداراً بطيئاً من البقاع يستطيع ان يروي رياً منظماً عشرات الالوف من الهكتارات لو كانت اعمال الري فيه قد نظمت

تنظيماً مفيداً ، ونحن نرغب من صميمنا ان تقوى الحكومة على ان تضع باسرع ما يمكن موضع التنفيذ التصاميم التي كانت لهذه الغاية وما برحت قيد الدرس .

وفي غرب السلسلة الجبلية وعلى سفح البحر المتوسط جداول عـدة تجري مياهها وقد انبثقت من الينابيع العالية فجعل لبعضها اقنية عند مجراها الاسفل فانتشرت بسببها الزراعة انتشاراً الى درجة تغيّر معها وجه الساحل تغيّراً تامّاً .

ومما يجب الّا ننساه هو ان الفلاحين الذين يقيمون على المرتفعات المشرفة على الساحل ويتراوح علوها من ١٠٠ الى ٢٠٠ والى ١٥٠٠ متر ما برحوا عامة يتعاطون الزراعة البعلية الضعيفة ذات المحصول الضئيل لان اشجـارهم لا تعرف في غضون الاشهر الثمانية من السنة الّا رطوبة الليل تتجدّد قليلاً تطريتها فمن السهل نسبياً ان يجلب الى هذه المناطق المتوسطة ما. الجبل العالي الذي يتدفق بغزارة في نقاط عديدة وذلك بواسطة اقنية وفروع لها .

ولئن نُظِّم الريّ واضيف اليه انشاء المراكز الكهربائية التي المعنا اليـا في مقالنا السابق فتكون فائدة الدائنين منه كبيرة ويكون مجلبة الخصب الى هذه المناطق خصباً لم تعهده من قبل ويوقف في الوقت نفسه تدفق سيل المهاجرين الذين يؤمون العالم الجديد سعياً وراء حياة اقل عناء .

ومن الناحية الداخلية فان اهمية مثل هذا المشروع الاجتماعية هي عظيمة لانها تمنع اولاد الفلاحين الذهاب الى المدن لتضخيم عدد الشغيلة فيهـا حيث يسدرون في وضع اقرب الى البؤس منه الى الرفاه ولانهـا ترجع الارض الى خصبها فتصبح قابلة للبيع والشراء اما في الساعة القائمة فما اكثر الملاكين — وان كانوا كباراً في هذه المناطق — الذين عضهم العوز وعجزوا عن ايجـاد شارين لحقولهم القليلة الخصب الحصباء التي اورثهم اياها جدودهم .

ويجب ان نضيف الى سوء استخدام الميـاه النقص في استثمار الارض .
ومما قاله السيد جان دبانه المعروف بمقدرته في الشؤون الزراعية في المحاضرة التي القاها ببيروت في اثناء اجتماع عقدته ندوة الاسبوع الاجتماعي سنة ١٩٤٢ :
« ان مختلف ضروب زراعتنا اذا ما اعتني بها اعتناء يعدل العناية بها في المناطق الاخرى فانها تعطي من حيث الكمية وخاصة من حيث النوعيـة معدل انتاج

يفوق معظم المناطق الاخرى فنواحينا الاشد فقرًا باستطاعتها الازدهار وذلك بفضل زراعة موجّهة توجيهاً ملائماً ومشجعة تشجيعاً حسناً اما اذا كانت اصناف الانتاج عامة اقل جدًا من معدلها العادي فلكون طريقة الزراعة ما برحت غالباً عاجزة من بعض المناحي».

ولقد المعنا فيما تقدم معنا الى مَثَل الارض المعدودة للحنطة ولم تعطِ الّا ربع الانتاج الذي كان مقدرًا لها ان تعطيه.

ومما يفضي الى تضاؤل المحصولات عدم استخدام السماد الكافي وحراثة المزارعين للارض حراثة في غير محلها او «تنظيمها» بصورة لا تردّ معها شيئاً في خلال سنة او سنتين على حين انه لو احسن استغلالها لكانت انتجت محصولات وافرة ومنظمة. ويتفق غالباً ان لا يطبق الفلاح تطبيقاً ملائماً اصناف المزروعات على طبيعة الارض اذ يتكل على الاساليب القديمة البالية التقليدية فلا يفكر في توزيع الاغراس ولا بايجاد امكانيات جديدة في الاستثمار ولا يعرف ان يختار افضل البذار ولا البذار الملائم لتربة الارض.

وقد يكون الفلاح معذورًا بعض العذر في ذلك لان الحكومة لم تنشئ مراكز اختبار لتوجيهه توجيهاً مفيدًا وتقدم له خير البذور الملائمة لتربة الارض.

نقصان رؤوس الاموال للاستثمار وفق المنهج الحديث

ليس مردّ النقص في استغلال الثروات الطبيعية الذي شهدناه الى قصور الفلاح وعدم كفاءته في بعض الظروف بل الى نقص رؤوس الاموال ايضاً، وفي مثل هذا المقام يتصل العامل الزراعي بالعامل الاقتصادي سواء اكان ذلك متعلقاً باقتصاديات المستثمر الشخصية ام باقتصاديات البلاد العامة. فالملاك الصغير والمزارع محاصة تنقصهما عادةً رؤوس الاموال: الاول لتحسين زراعته ولدرء قسوة سنيّ القحط والثاني ليقوى على الوفاء بشروط عقده «مقاولة» وذلك اذا لم يدهمه ما ليس بالحسبان ويثقل اعباءهُ وعلى كل انهما سيضطران كنتيجة طبيعية الى الاستدانة واذا ما استدانا من احد المرابين فانهما يعرضان نفسيهما الى خسارة كل ما يملكانه واذا ما استدان الخُولي من صاحب الملك تحرج موقفه وبات تحت رحمته واوشك ان يجعله نصف رقيق له، فالفلاح يفتقر الى

ايجاد دائن مجرد عن المطامع ليساعده من دون ان يستغله وليست القضية خاصة بلبنان بل بمصرف التسليف الزراعي اما الحلول المرتآة لها فتنوّعة وقد عُهد بها اما الى شركات مصرفية واما الى الدولة نفسها او الى تعاونيات تسليف.

ولقد يوشر تحقيق هذا الامر في لبنان ولكنه ما برح غير كاف لانعاش الزراعة حقاً . ففي سنة ١٩٣٧ اوجد مصرف سورية ولبنان شركة التسليف الزراعي والصناعي اللبنانية اما القروض التي ارتأى اعطاءها المزارعين فلم تتجاوز قيمتها قط الـ ٤ ٪ من انتاج البلاد السنوي وهو ما زال ممسكاً بهذه المشكاة ويؤمن كل عام للدولة اللبنانية سلفة قدرها ستة ملايين ليرة لبنانية. وقد انشأت الدولة مصلحة القروض الزراعية اما في البدء فكانت الاموال تسلّف بدون حدّ معين اما اليوم فان القانون لا يبيح قرضاً اكثر من ٥٠٠٠ ليرة لبنانية على ان يسدّد في خلال خمس سنوات وذلك مقابل رهن . ولقد جاء هذا العمل سادّاً للحاجة الى حدّ تدفقت معه طلبات القروض بالالوف من كل نواحي البلاد على هذه المصلحة .

وقد عمدت الدولة بعض المرات الى تخفيض معدل القرض الى الفي ليرة وحتى الى الف ليرة لبنانية ليستطيع معظم طالبي القروض الاستفادة منها فتمكن الفلاح الصغير ان يستفيد من القروض على الصورة المرغوب فيها غير ان المساعدة المقدمة له هي قليلة جداً اما مجموع القروض المرتأى لكل سنة فلا يبلغ الـ ٣ ٪ من قيمة مجموع الانتاج الزراعي السنوي في لبنان اما معدل الفائدة فخمسة بالمئة . ويخيّل الينا اذا شئنا ان تتقدم الزراعة انه لا مندوحة عن تعليق اهمية كبرى على مؤسسة التسليف الزراعي . ولماذا لا يتبنى لبنان المنهج التعاوني في التسليف وهو المنهج الذي يؤدي خدمات كبرى في البلدان الاخرى ومن مزاياه انه قد اوجده واداره رجال المهنة وتولّوه باقتصادياتهم وهو يفرض ما عدا ذلك ان المزارعين يفقهون ضرورة الاتحاد بينهم ليساعد احدهم الآخر وان يكون اكثرهم ثروة مستعدين ليضعوا في خدمة القضية الزراعية الوطنية اللبنانية جزءاً من رؤوس اموالهم . ان الاختبار كما يبدو قد برهن على ان هذه الروح لما تنضج في لبنان لتحقيق مثل هذه المشروعات .

ولقد رخص المرسوم الصادر في ١٩ من شهر كانون الاول سنة ١٩٤١ بانشاء الشركات التعاونية وتنظيمها وكما اتصل بنا لم تقم منذ ذلك التاريخ الا تعاونيتان زراعيتان عملياً ما برحتا تعملان ايضاً ولكن بصعوبات كثيرة وما هما بمعنى الكلمة بتعاونيتي تسليف . ويبدو لنا انه لا بد من مباشرة عمل اقناع مبهم وافهام الفلاحين ان مساعدهم الحقيقي هو انفسهم وذلك على قدر ما يعرفون ان يتفاهموا ويتحدوا لتنسيق مجهوداتهم وتزيد امكانياتهم المالية.

والجمعية التعاونية قد كانت في بعض البلدان عاملاً من عوامل التقدم العظيم وبوسعها ان يكون لها اهداف متنوعة : كالتسليف — وشراء الاسمدة وضروب البذار وبيع المنتجات الزراعية — وشراء الادوات المحركة الخ . . . ومن اجل فوائدها انها تخرج الفلاح من عزلته وتجعله يستفيد من منافع العمل المشترك وجدواه .

نقصان التثقيف الفني

يتطلب كل علم من العلوم الانسانية في الاساس تثقيفاً نظرياً وعملياً جدياً وعلم الزراعة كغيره . ومن جملة العوامل المعدودة التي تبقي الزراعة اللبنانية على جمودها نوعاً نقصان الثقافة العلمية ففي جميع درجات السلم الاجتماعي لطبقة الفلاحين اللبنانيين ما برح عدد الاختصاصيين ذوي الكفاءة الجدية ضئيلاً جد الضؤولة فلو كانوا اكثر عدداً مما هم عليه الآن لاستطاعوا اسداء النصح الى مواطنيهم وارشادهم ولعرفوا ان يزيدوا انتاج الارض ولنوّعوا الزراعة وجعلوها تماشي الاوضاع المحلية وبكلمة واحدة لكان الاقتداء بهم درساً حياً من دروس علم الاشياء .

وفي لبنان كما في غيره من البلدان قد ورث الفلاح عن اسلافه تقاليد عديدة متطاولة الاجيال وليدة الاختبارات العلمية السابقة ومنها المفيد ومنها المضرّ عن جهل وعدم فهم . وقد ذكر السيد دبانه في محاضرته التي اشرنا اليها مثلاً نموذجياً في هذا الباب : كطريقة قطاف الاثمار في بساتين الزيتون الساحلية وعقب قائلاً : يباشر الفلاح عمله بطريقة تتلف الاشجار في كل موسم اذ يقضي على قسم كبير بعمله على موسم السنة التالية . فالمدرسة وحدها تستطيع ان تزيل شيئاً فشيئاً هذا الخطأ وتثقف المزارعين الشباب تثقيفاً راسخاً . ويسعنا القول ان الحكومة لمّا توجّه تعليم مدارسها الى ثقافة تعنى بالارض

توجيهاً حقيقياً وانها لثلمة لها اهميتها لان هذا التثقيف بوسعه ان يشمل زهاء ثلثي طلاب المدارس فلذلك من الواجب توسيعه على قدر المستطاع لكي يكون مجدياً وان يحتوي على عدة درجات ليطبق على مختلف طبقات السكان.

ويبدو ان الحاجة الماسة تدعو الى نشره في البد. في المرحلة الاولية التي من واجب المدرسة فيها ان لا توزع تعليماً مفرغاً في قالب واحد تستوي فيه المدن والارياف وابناء الضياع والعمال واولاد الفلاحين ويجب ان يشتمل برنامج مدارس القرى على جزء توجيهي نحو التثقيف الزراعي النظري والعملي وان يكون الفحص النهائي محتوياً على امتحانات نظرية وعملية زراعية وذلك من خير الوسائل لحمل ابن الفلاح على الرغبة بالارض والتعلق بها .

والتعليم الابتدائي الذي نفهمه على هذه الصورة بالاستطاعة اكماله في مزارع مدرسية يرى الشباب فيها عملياً تحقيق ضروب الزراعة النموذجية التي سيعانيها في ارضه بالمستقبل . وبستوجب التعليم الزراعي تنظيم مرحلة ثانوية فيصبح بالامكان ان تقدم للبلاد رؤوساء ومرشدين ووكلاء بالاستنابة عن صاحب العمل ورؤوساء مصالح لمشروعات الاستثمار خبيرين . ويجب توزيع هذا التعليم بحكمة ولا يصلح لاحد ان يدخله الا بعد امتحان دقيق لا تجتازه الا النخبة.

وبما ان عدد الملكيات الكبرى في لبنان قليل جداً فينبغي لنا ان لا نصطدم للمرة الثانية بالصعوبات الناجمة عن التعليم الثانوي المدرسي الحديث الذي اصبح عدد حاملي شهادته — البكالوريا — لا يستطيعون الا بكل صعوبة ايجاد عمل لهم بسبب كثرة عددهم .

وبالاستطاعة انشاء منفذ طبيعي لاستنفاد ايدي طلاب هذه المرحلة الثانوية بواسطة ملاك موظفي الزراعة . ومن المستحسن ان تفكر الحكومة في ايجاد ادارة منظمة وذات كفاءة للشؤون الزراعية وان يكون في كل قضاء فريق من الموظفين الكافي عددهم النشيطين مهمتهم كمستشارين ومراقبين للزراعة .

وينبغي للتعليم الثانوي الزراعي ان يبلغ خير الطلاب درجة عليا ولذلك من الواجب التفكير في انشاء مؤسسة زراعية عليا يتولى التعليم فيها اساتذة اكفاء وذوي خبرة ومنها تتخذ الحكومة كبار موظفيها الزراعيين . وفي مقدور

كبار الملاكين ان يثقفوا ابناءهم وهم في اراضيهم التثقيف الزراعي الضروري لكي يصبحوا في المستقبل مديرين حاذقين لاملاكهم الواسعة ومستشارين ومرشدين لفلاحي منطقتهم وعليهم مدار الامر في الحركات التعاونية ويكونوا قطب الرحى في الحض على الاصلاحات الادارية الضرورية لانجاح الزراعة.

ولا شك في انه ينجم عن كل هذه الامور تحسين المهنة واحياء محبة الارض وازدهار عظيم عام وتوازن داخلي لاقتصاديات البلاد اوفى بالغرض. ويخيّل الينا انه من الفائدة ان نشير الى الطريقة المتبعة في احقاق التعليم الريفي وتطبيقه على حاجات البلاد.

ولقد قرأنا في مقالة عنوانها «المدرسة الابتدائية والحقيقة المراكشية» ما يلي: ان ميزة التعليم الفرنسي الاسلامي الريفية آخذة بالرسوخ عن طريقة تنظيم استخدام الوقت استخداماً خاصاً وايجاد حديقة بالقرب من المدرسة اشتغلها الطلاب بانفسهم بتطبيق الطرق والاساليب الحديثة على الزراعة التقليدية.

وعلى هذه الصورة نشأ تعليم زراعي في مدارس البلاد يفي بالتثقيف الزراعي الحديث. والمدرسة الابتدائية قد قامت بدورها اذ جعلت التعليم ابن الجو الريفي فلبّت بذلك الرغبة بان لا ينفصل الاولاد عن محيطهم وعن مشاغل ذويهم الجوهرية فلا يساقون بدون تمييز بتعليم غامض غير ملائم الى احتقار ما يتعلق بمهنة المزارع اذ من الواجب اشراب عقول الطلاب الاساليب الزراعية المعقولة وتعليمهم استخدام مياه الري التي ما زالت قليلة في هذه البلاد على خير الوجوه فلا يسرفون فيها وان نغرس في انفسهم منذ صغرهم مبادئ العمل المعتنى به المنظم وفق الاساليب الحديثة وان ندربهم على استخدام الاسمدة ومحبة الاشجار والحيوانات واحترامها اشراباً نظرياً ولكنه حسيّ على قدر المستطاع، وقد ارتبط به التعاون المدرسي المتبادل الذي يساعد بفضل الارباح الناجمة عن بيع المنتجات الزراعية لكل مدرسة ريفية على منح طلاب هذه المدارس الجوائز وبعض النقود المتوفرة باقتطاعها من اثمانها وبعض هبات من الالبسة وتحسين وجبات اكلهم في مطعم المدرسة. وما عدا هذا ثمة في ملاك التعليم الفرنسي الاسلامي مرتبة عليا عملية زراعية في مختلف المناطق

المراكشية الزراعية يقابلها ١٧ فرعاً زراعياً... وبعد ثلاث سنوات من الدرس العملي الجدي يدرس في خلالها الطالب عشرين ساعة عملية في الاسبوع وعشرين ساعة يتلقى فيها التعليم العام ينال شهادة التدريب الزراعية[1]

تنظيم اسواق الاستهلاك

اننا لا نجهل الاهمية التي تتخذها المبادلات التجارية في حياة لبنان فعلى قدر ما تكون ناشطة يكون اقتصاد البلاد سليماً والمنتجات الزراعية يسعها ان تكون مادة تبادل ذات فائدة حيوية للبلاد. ولما كان باطن الارض في لبنان لا ينتج شيئاً ولما كانت صناعته ضعيفة لا تصدر الا القليل كانت المحصولات الزراعية وحدها المصدَّرة بكثرة هي التي يسعها انعاش الميزان الاقتصادي انعاشاً محسوساً فلذلك ينبغي لسياسة الحكام ان تجعل من اول اهدافها ايجاد الاسواق الاستهلاكية لهذه المنتجات اذ لا فائدة للفلاح من توسيع ضروب زراعته واتقانها اذا لم يجد امامه منافذ لاستهلاك منتجاتها فالطبيعة قد ساقت الى لبنان مهراً بامكانيات تنوع مزروعاته تنوعاً كبيراً وباستطاعته ان يجلب الى تربته اثمار البلدان الحارة: كالبلح والموز والحمضيات وشتى مزروعات الاقاليم المعتدلة والباردة كالتفاح والاجاص والمشمش الخ... وجميع انواع الحبوب. اما بلدان الشرق الادنى الاخرى كسورية ومصر والعراق وشرقي الاردن فهي من البلدان التي تشتري هذه المحصولات ولكنها تشتري جزءاً منها من اوربة والآخر من اميركة والسبب في ذلك هو ان تحسين هذه الانواع في لبنان لمَّا يعرف ان يفرض نفسه فرضاً. فثمة اذاً ما يدعو الى ايجاد منافذ طبيعية هامة وعلى الحكومة ان تساعد في هذا العمل وتبذل مجهوداتها لتزيد امكانيات المبادلات واستقرارها.

ومن واجبها ان تعمد في هذا السبيل الى عقد اتفاقات رسمية مع الدول المجاورة واجراء تنظيمات داخلية مجدية وعلى المزارع ان يحاول اكتشاف الزبائن عن طريق استقامته بقيمة منتجاته وبانتظامها وعرضها ولقد شهدنا في خلال السنوات الاخيرة خللاً في هذا الباب الا هو فقدان النظام فاذا لم يصلح المنتج اللبناني نفسه فسيتعرض في المستقبل الى كساد بيعه كساداً يفضي الى

(1) Cf. *Bulletin d'Information*, N° 5, du 5 Mars 1951.

اتلاف محصولاته . ومحصول التفاح في لبنان بالنظر الى المساحات الجديدة المغروسة من اشجاره يقتضي له ان يزداد ازديادًا طبيعيًا عشرة اضعافه في السنين المقبلة فيصبح تصدير محصوله هذا ضرورة لا محيد عنها اما اذا استحال تصديره فسوف يضطر عدد كبير من الفلاحين الى الافلاس .

وفي المحاضرة التي القاها السيد ليون مراد في ندوة الاسبوع الاجتماعي سنة ١٩٤٢ في بيروت قال بتنظيم السوق المحلية التي ما برحت راسخة اكثر من غيرها وبالتفاهم الواسع مع بلدان الشرق الادنى واعرب عن رأيه كما يلي: «اننا نهتم خاصة بتحقيق كتلة اقتصادية بين مختلف بلدان الشرق الادنى ذات مصلحة متضامنة ترغمنا على توحيد نماذج زراعتنا وتوزيع المنتجات ذات الطابع الاكمالي وايجاد مناطق خاصة للانتاج ومستوى مشترك لنماذج التصدير وتنسيق تعريفات جماركنا واباحة حرية التجارة داخل هذه الكتلة على قدر الامكان...»

ويخيل الينا واضحاً كل الوضوح ان اللبناني بمهارته التقليدية في قضية المبادلات الدولية ينبغي له ان يفرض انتاج زراعته على سوق الشرق الادنى ولو تكلف بعض المشقة.

الاصلاحات القانونية

ما زال بعض العراقيل التقليدية البالية تحول دون نمو الزراعة اللبنانية لان هذه التقاليد التي تنظم علاقات الافراد بعضهم ببعض ما فتئت قائمة منذ عهد الامبراطورية العثمانية وهي تعود في بعض الاحيان الى قبل ذلك او الى وضع اجتماعي من اوضاع القرون الوسطى فباتت لا تماشي ابدًا الاوضاع العلمية الحديثة حتى اصبح التجدد يفرض نفسه فرضاً . وعلى رغم كل ذلك لا بد من الاعتراف بان اعمالًا تقدمية قد تم تحقيقها في ناحيتين فاخذت تعتق الفلاح من شبكة قيوده المضنية التي سجنته ضمنها القرون المتطاولة . ان ايجاد المساحة لفكر صائب قد ساعد على تحقيق تجزئة الملكية العقارية تجزئة معقولة وعلى توزيع الاراضي توزيعاً افضل منه في الماضي . وجاء القانون الحديث بشأن التعاونيات التي تكلمنا عليها يخول الفلاح ايجاد شركات وجماعات مصلحية بشكل حديث ... والظاهر انه لم يدرك بعد كل فائدتها . والى جانب ذلك تقاليد زراعية عديدة

ذات طابع خاص منبثقة من ضرورات الحياة واوضاع السكان والاوضاع الجغرافية ما برحت من عوامل الشلل بسبب رسوخها على ممر القرون .

واليك مثلاً يظهر بعض نقاطها المفتقرة الى الاصلاح المفيد . فقد كان قديماً في سوريا ولبنان ضرب من ملكية احدى القرى يقال له « المشاع » وقد جزئت هذه العقارات في سبيل تحقيق مساواة كبرى في استثمارها بين جميع من لهم حق فيها تجزئة يلغ بها الافراط احياناً الى درجة لم يتمكن معها الثوران اللذان يجران المحراث الا بكل صعوبة المرور على قطعة من هذه الارض بسبب ضيقها كل الضيق . واكمل هذه التجزئة تنقل الاراضي تنقلاً دورياً منسقاً ومرتباً ترتيباً قانونياً بين المستثمرين فكانت هذه الطريقة بلا ريب من العراقيل في وجه استغلال الارض استغلالاً معقولاً الى ابعد حد ممكن . وهذا الضرب من الملكية المشاعية آخذ بالزوال ولاسيما في الاراضي الصالحة للزراعة فكان انشاء المساحة الفرصة التي اختارتها السلطات لتوحيد العقارات بالاتفاق مع زعماء القرى فخصوا لكل رئيس عيلة انصبة متجانسة معقولة يكفي انتاجها المعيشة المنظمة . اما في الامكنة التي ما برحت فيها اراض مشاعية فهناك مجال لمتابعة اعمال التقدم التطورية التي بوشرت لتأمين ملكية ثابتة شخصية لجميع الفلاحين الذين لهم حق بذلك « المشاع » . ولقد انشأت بعض الجماعات القروية الاخرى تفادياً من تجزئة الارض تجزئة مفرطة ضرباً من شركة مشاعية لاستغلالها فكان كل فرد من افراد الشركة ينال في نهاية الموسم نصيبه من الاتحاد بيد ان هذه الطريقة قد اظهرت انها من العراقيل المثلة لانها تتيح الفرصة لكثير من ضروب الاحتيال بين افراد الشركة مما كان خطره شديداً على شاكلة الشركة بدون عقد « كالخول ووكلاء اصحاب الاملاك وشراء المحصولات او ريعها الخ ... » التي لم يكن بالاستطاعة عقد مقاولة بينها وبين الشخص الثالث بدون اتفاق سابق بين اعضاء الجماعة كلها بدون استثناء. فلذلك اخذت هذه القاعدة الاستثمارية بالتقهقر الصريح تقهقراً يبدو لنا حسناً . واكثر العقود الزراعية انتشاراً في العلائق بين الملاك والمزارع مقاولات الخول التي لها اشكال عديدة واساليب تطبيق كثيرة لا نستطيع بسطها في مثل هذا

المقام وانما نذكر ان تعدادها نفسه هو مصدر عدم استقرار الحقوق المتبادلة وفرصة سنحت للمظالم وذلك اذا كان الملاكون من ذوي الوجدان الضئيل . وزد على ذلك انه اذا ما سقط الحولي في بعض المناطق الفقيرة تحت دين لمعلمه عليه فقد يستفيد هذا احياناً ليرغمه على الثبات عنده ثباتاً اجبارياً فيصبح وضع الحولي اشبه بنصف رقيق . فمن الفائدة بمكان ان يبسط القانون مواده لعقود الحول ويوحدها ويجعلها مستقرة .

وعقد المغارسة يسبب ايضاً مساوئ ومظالم ولاسيما اذا لم يتناول الا المشاركة في الاشجار المغروسة فيبدو في مثل هذا المقام انه على الدولة ان تسن القوانين تعزيزاً لتعميم عقد المغارسة لا من حيث الاشتراك بملكية الاشجار بل من حيث الاشتراك بملكية العقار المغروسة فيه اذ ينجم عن ذلك ان تزداد رفاهية الحولي ازدياداً سريعاً وتستقر حياته العملية لانه شرع يتخذ شيئاً فشيئاً مقامه في عداد صغار الملاكين .

ولا تعطي هذه الامثلة الوجيزة الا فكرة ضعيفة عن كثرة اشكال العقود التقليدية التي لا تزال سارية المفعول في الزراعة اللبنانية «كعقود تربية الماشية والمراعي والتسميد والري واستئجار الارض والوكلاء عن اصحاب الاملاك ..» ولكنها تخولنا ان ندرك ان حياة الطائفة المزارعة في لبنان تقوم على اساس اشكال عقود اكل الدهر عليها وشرب وقد اصبحت غير صالحة ولا تماشي مقتضيات التطور التقدمي .

ويظهر ان اهم الاصلاح المفتقرة اليه البلاد افتقاراً ماساً يستدعي اعادة التفكير في كيفية بناء المهنة الزراعية العام ليسهرها بقانون حديث كما تم ذلك في بقية المهن بلبنان .

وبالاستطاعة ان يتخذ هذا القانون شكل اتفاق اجتماعي كما في بعض البلدان اي اتفاق وضع بعد المناقشة والتفاهم بين نقابات اصحاب الاملاك والعمال والدولة . اما النقابة الزراعية في لبنان فما برحت في حالتها الجنينية فلذلك لا تستطيع ان تتكلم باسم جميع المهن . ويبدو ان ثمة طريقة اشد جدوى الا هي تأليف لجنة من الحقوقيين والمهندسين الزراعيين غايتها سن مشروع تنظيم قانوني عام بموافقة الدولة عليه ، وانما يجب ان لا يتوخى هذا التنظيم القانوني ليكون مثمراً ومفيداً وجهات نظر هذه المعضلة الحقوقية والفنية والاقتصادية فقط بل من واجبه ان يتصدى بكل جرأة لمعضلة الفلاحين برمتها .

وهذه المعضلة الاجتماعية تختلف الاختلاف كله عن معضلة العامل الاجتماعية فلذلك تتطلب تشريعاً خاصاً وان لم يستطع ان يكون مفصلاً في ذرائعه كتشريع العمال المحض بالنظر الى اوضاع الفلاح الحيوية فانه على الاقل يتمكن ان يمنح المزارع حماية مجدية في بعض الامور الجوهرية . وينبغي لهذا القانون ان يقوى على تأمين المزارع ولا سيما العامل الزراعي ضد بعض الاخطار في حياته، في عمله . وان يؤمن له مستوى معيشة لائقة ويعزز نموّ عيلة الفلاح وازدهارها .

واشد الاخطار اهمية في حياة الفلاح العملية الحوادث والامراض . اما بشأن هذه الحوادث فبالاستطاعة تطبيق قانون العمل (مرسوم رقم ET/٢٥ في ٤ ايار ١٩٤٣) (المادة ٢ – الفقرة ٩) على الزراعة . وفي الاستثمار الذي يستخدم التراكتورات والادوات ذات المحركات فالمصاب ينعم بالفوائد التي نصّ عليها هذا القانون ولكن كما يبدو انها الحالة الوحيدة التي يستطاع فيها تطبيق قانون العمل اللبناني على الشؤون الزراعية لان جميع القوانين الاخرى تستثني صراحة بنصوصها المهنة الزراعية . وفي الواقع ان المادة ٧ بفقرتها الثانية كانت مبعثاً للامل ان يكون التعاون الزراعي موضوع تشريع خاص بيد ان الفلاح اللبناني ما برح ينتظر عبثاً تحقيق هذا الامل، وانه لمن الظلم والسياسة الخرقاء ان يظل الفلاح بعيداً عن التطور القانوني، فمن الضرورة على ما يلوح لنا ان تشمل القوانين التي سترى النور في المستقبل الفلاحين كلما كان ذلك مستطاعاً . فاذا بُدئ مثلاً بوضع ضمان ضد المرض فمن المرغوب فيه ان يشمل هذا الضمان الفلاح ليستفيد منه اما دفع رسم الاكتتابات الشهري فربما كان تنظيمه اشدّ صعوبة لدى الفلاحين مما هو لدى الصناعيين ومع ذلك ليست هذه القضية مستعصية الحل . اذ بالامكان بسهولة ادخال شرط في صك عقد مقاولات وكلاء الملاكين ومستأجري الارض والحولة ينصّ على كيفية دفع هذه الاكتتابات اما العامل الزراعي المحض فيجب ان يزوّد يوماً ما ببطاقة عمل اصولية تكون اساساً لدفع اكتتابات ضمانه، ولن يكون الضمان ضد المرض مفيداً للفلاح الّا اذا كان في متناول يده الاطباء والمستشفيات لكيلا يضطر الى هبوط المدن. ولذلك يقضي الواجب بتعديل المصلحة الصحية وتنظيمها تنظيماً

يسد حاجات المنطقة .

وهذا الامر هو من النقاط المهمّة التي ينبغي للقانون ان يتناول تنظيمها الجديد تنظيماً جدياً . اما فيما يختص بمستوى معيشة الفلاح فمن الصعب ان تسن له القوانين بفرض حدّ ادنى للاجر كعامل المصنع لان العامل الزراعي غالباً ما يكون مسكنه ومأكله مؤمناً عند سيده ولو على الاقل لمدة عمله طالت ام قصرت في السنة . اما اجرته فغالباً ما يقبضها عيناً . ويبدو انه من الممكن للتشريع الجديد ان يعزّز تبني اجر هذا العامل نقداً فيستفيد سواء أكان ذلك من حيث حريته ام من حيث استقراره وعلى الاختصاصيين الزراعيين ان يجدوا الوسائل الناجعة في سبيل الوصول الى هذه النتيجة . وحمادى القول ان حماية اسرة الفلاح هي اهم نقطة في هذه القضية فلو كان الضمان المرضي منظماً والاجر محسّناً فباستطاعة العيلة ان تستفيد فائدة كبرى من هذه الاصلاحات . ويبدو صعباً في الساعة القائمة الراهنة تقرير اجر عيليّ منسّق عن طريق ايجاد صناديق تعويض . والذي يبدو ممكناً كل الامكان هو ان يدخل في عقود مقاولات « الاستنابة عن صاحب الملك — واكتراء الارض - والحول — وتأجير الخدمة » مبدأ نفقات العيلة . ولئن ادخل يوماً الى البلاد ضمان الامومة لكان من المناسب ان يشمل طبقة الفلاحين فيكون عوناً كبيراً لاب العيلة . اما اذا استحال اقرار هذا الضمان فعلى التنظيم القانوني الجديـــد ان ينصّ على ان تدفع الدولة او الجمعيات التعاونية مرتبات لطائفة من القابلات ليقمن بعملهنّ في قرى كل قضاء . وعلى كل فــان اكثار مستوصفات التطبيب للاعتناء بالامهات والاطفال هو ضرورة حيوية للبلاد .

ومما في الاستطاعة اتيانه في سبيل حماية العيلة بجدوى هو المسكن ، وحسبنا الطواف في القرى لنرى عدم توفر الراحة المنزلية والشروط الصحية وحالة المنزل الشبيهة بالمساكن القديمة الاولية هذه المنازل التي تعيش فيها عيال الفلاحين وتتكاثر .

وفي سبيل حلّ معضلة منزل الفلاح يجب ان لا ننظر اليه بالنسبة الى وجهة النظر الموضعية بل بالنسبة الى الوجهة الوطنية . وتتطلب هذه المعضلة رؤوس

اموال كبرى وايجاد مشروع واسع منسق غير ان بناء هذه المنازل الريفية لاسهل غالباً من تشييدها في المدن وذلك بالنسبة الى رخصها .

ولقد توصلت بعض البلدان الى نتائج باهرة في هذا الصدد . فلماذا لا ينجح لبنان ايضاً في هذا الباب ؟ ولا بدّ للتنظيم القانوني الجديد في سبيل اتيانٍ عمل مستوفٍ من ان ينصّ على ايجاد مدارس زراعية ومزارع مدرسية كما سبق لنا ان اشرنا الى ذلك اذ لا يكفي تعزيز العيال الكثيرة العدد بل علينا أن نزوّد ابناءها بالمعدات لحياة العمل التي ستكون حياتهم وبذلك تكون مساعدتنا مجدية لاسرة الفلاح اساس الازدهار اللبناني الاشد رسوخاً .

ولترجونّ ان تهتم الفئات المختارة في البلاد اهتماماً اعظم لمعضلة فلاحي وطنهم . ولئن كان الكثيرون من ابناء المدينة لا يعرفون الجبل الا بالمباهج التي يقدمها لهم في اثناء فصل الاصطياف فهولاء قد احتكّوا بالفلاحين من دون ان يعلموا ما في حياتهم من صعوبات ومشقات . ويجهلون ايضاً ان ما يبدونه من فخفخة يحمل الفلاح على الاستسلام للاحلام فيعتبر ذاته من منبوذي المجتمع فتتأصل في نفسه الرغبة في هجر كل شيء. ليذهب نحو المدينة حيث يظن انه يجد فيها حياة هينة ولا يلاقي غالباً لاستقباله غير البؤس .

وابناء المدن الذين يحملون شهادة البكالوريا او ما يعادلها ، العاجزون عن ايجاد مركز لائق ، عليهم ان يفكروا في تحويل انظارهم نحو الارض. اما اذا شئنا ان يظل ابناؤنا اقوياء فمن واجبهم ان يتعلقوا تعلقاً وطيداً بارضهم ، فجدودنا قد كانوا لنا خير عبرة بجلدهم وثبات عملهم وكرامة حياتهم. فعلى الشباب ان لا يفكروا في انهم ينحطّون في حراثة ارضهم .

ولا يؤدي اقفار الارياف من السكان الّا الى الخراب ، لان ازدهار حياة الفلاح هو عنصر لا يستغنى عنه للثروة الوطنية . ففي اليوم الذي ينصرف فيه الشباب بكليته بحماسة الى الارض تصبح المعضلة الاجتماعية التي اوجدتها طائفة الفلاحين اللبنانية في طريق الحل نهائياً .

واننا لنتمنّى على الله ان لا يتأخر ذلك اليوم كثيراً ولننسق مجهوداتنا لتعجيل حلوله .

بناء جديد في هيكل بعلبك

بقلم الاب رينه موترد اليسوعي

ما فتئت مصلحة الآثار اللبنانية تواصل ابحاثها وتتابع عمل رفع الانقاض المفيد في هيكل بعلبك. فمنذ عهد غير بعيد باشرت اعادة ترميم صُفّة(١) في الجهة الشمالية من ساحة الاضاحي الفسيحة كما ارجعت بناية صغيرة توشك ان تكون مكعبة وذلك في الباحة نفسها. وهذا البناء الصغير متماسك رصف الحجارة وخالٍ من الزخرف وقائم عند قاعدة السلّم الكبرى التي كانت تؤدي الى هيكل هليوبوليس لجوبيتر وقد سارت بعملها سيرًا حسنًا.

ولا مندوحة عن التصريح بان اعادة ترميم هذا البناء الاخير تفضي الى اعجاب الزائرين المعتادين حتى الان المشهد الفسيح للفناء الطليق الذي ينتهي عند اسفل فرجة الهيكل والاعمدة الستة الجبارة والى لفت نظرهم.

ولئن لوحظت قاعدة بناية كبرى بين هذا البناء الصغير ومدخل الفناء لازدادت الدهشة لانها تحجب بحجمها واجهة الهيكل عن عبدة الاله الذين كانوا يؤمّونه.

فكيف نفسّرُ هذا التطبيق الغريب الذي صنعه مهرة العمال المدينين لهم بهيكل بعلبك.

ولقد سنا مفتاح هذا اللغز السيدان بول كولار (Paul Collart) العالم الاثري والاستاذ في جامعتي جنيف ولوزان وبيير كوبل (Pierre Coupel)

١) الصُفّة : موضع مظلل في المسجد واهل الصُفّة كانوا اضياف الاسلام وكانوا يبيتون في مسجد النبي وقد اخذنا هذه الكلمة لترجمة لفظة exèdre الفرنسية وسناها ردهة المحادثات ذات المقاعد.

المهندس المعماري الاسبق لدى مصلحة الآثار في كتاب رائع دبجته يراعتها معاً وعنوانه مذبح بعلبك العظيم [1].

ومما يثير اعجابنا هو صدور اول كتاب حول مذبح بعلبك الكبير سنة ١٩٥١ على حين ان التنقيبات الالمانية قد سبقت هذا التاريخ بخمسين سنة وصدر كتابان يصفان نتائجها ، ولكن عناصر الهندسة البنائية فرد اكتشافها الى ما عقد النيـة عليه السيد هنري سيريج (Henri Seyrig) سنة ١٩٣٠ عندما كان مديراً للآثار فدرس تلك العناصر الاستاذان كولار وكوبل وكان العزم على انتزاع الكنيسة البزنطية التي حفظ تصميها وطرازها تماماً وذلك للبحث تحتها عن بقايا الابنيـة الوثنية التي كانت تحجبها فتبيّن لهم فوراً ان الكنيسة برمّتها المبنية بحجارة ضخمة كانت حجارتها مستعملة في بناء عظيم ما زالت قاعدته واسـه قائمة في موضعها وقد أُخذت منه ، وكان عدد الانقاض الموجودة بعد اعادة الترميم في وضع يخول تجديد هذا البناء. الذي وصفه الاستاذان كولار وكوبل الان بالمذبح العظيم او « مذبح هليوبوليس — بعلبك البرج » . واسفرت الاعمال التي انجزت على نفقة الحكومة اللبنانية سنة ١٩٣٠ عن ٣٣٩ قطعة مزخرفة وعن زهاء ٣٠٠ قطعة اخرى وجدت كل لوحدها ، فأُخذ مقياس كل حجر من تلك الاحجار الضخمة كما اخذ رسمه وصُوِّر تصويراً شمسياً .

ويعرض الكتاب الجديد اولاً لائحة جميع هذه المواد ويقترح مجموعـة (بالرسم فقط) لحجارة الجزء الاعلى من البناء الضخمة ، ما يطلعنا على رسم هذا البناء وعلوه .

وباستطاعة تقدير الزخرف وطراز النقوش الناتئة وتحديد تاريخ البناء عن طريق دراسة الاول وبخاصة دراسة طراز النقوش لنحاول بعدئذ تعيين الدور

---

[1] P. COLLART ET P. COUPEL. *L'autel monumental de Baalbek.* (Institut français d'archéologie de Beyrouth. Bibl. arch., LII), VI-154. pp. in-f°, 96 pl. Paris, Geuthner, 1951.

الذي يمثله البناء في اقامة الطقوس الدينية التي كانت تجري في هليوبوليس .

وهذه الطريقة كما يلوح لنا لا يعتورها خطأ فلذلك يسعنا الارتياح كل الارتياح الى ايجاز نتائجها .

ومن المؤكد ان برجاً متراص رصف الحجارة كان يقوم على ارض مستوية التربيع ضلعه من العشرين الى الواحد وعشرين متراً لترتفع طبقاته الخمس في علوها الى الثمانية عشر متراً امام سلم هيكل جوبيتر الكبيرة ويحجب كل الواجهة عن الداخل الى المكان المقدس بطريق الباحة المسدسة الاضلاع .

ولقد كان البناء مشيداً بحجارة كبيرة جد الكبر وثقيلة وفق الطريقة التي كانت متبعة باتخاذ الحجارة الضخمة لهيكل جوبيتر وكان ثمة بابان على الواجهتين الشمالية والجنوبية يفتحان من جانب ومن اخر مع سلسلة ادراج انشئت لتأمين السير المزدحم وتسهيله وذلك من الارض الى السطح ومن السطح الى الارض اما السطح فكانت تدعمه عضادة قوية بارزة . .

ولم يكن للبناء المتراص الحجارة غير اربعة ابواب قد اشرنا اليها ومنافذ صغيرة مقوّس شكلها .

وكان يلطّف منظر البناء الخارجي الشديد الحراشة التغشية بالشبه البرونز (كما يثبت ذلك وجود فرجات ملبّسة بالصفائح المعدنية وآثار رباط من الشبه التي حفظت على الحجارة الضخمة) . اما تيجان رؤوس الاعمدة التي كانت مغشّاة بالشبه (برونز) فربما كانت من خشب الارز الذي لا ينال منه الاندثار مثالاً وبالاستطاعة ان نزيد على ذلك انه من المحتمل ان يكون الشبه موشّى بالذهب كتيجان اعمدة الاروقة الداخلية وكغيرها من اشياء الامكنة المقدسة الكثيرة في الهياكل السامية .

فايّ مشهد وهّاج لم يتخذ ذلك البرج تحت اشعة شمس بعلبك !

فالصفائح المعدنية قد اندرست منذ اجل بعيد في بوتقة ذوي المصاهر .

اما النقوش المحفورة بالحجر التي كانت تزين السقوف فوق سلالم البناء الداخلية فما برحت موجودة . والزخرف المصنوع على اشكال هندسية سداسية الاضلاع خاصة واشكال اخرى غيرها وفي وسطها رسوم ازهار واقنعة مسرحية ورسوم وردية بشكل اقواس فهي ذات فائدة علمية .

ومن السهل ان نميّز بدون ريب وجود يد فئتين من الصناع قد اشتغلت بسرعة في آنٍ واحد فنقوش الواجهة الشمالية ذات « الطراز الخشن » هي من صنع العمال المحليين المستقل صنعهم كل الاستقلال عن النماذج الغربية اما نقوش الواجهة الجنوبية فالامر فيها على العكس فهناك فئتان عملتا جنباً لجنب في نحت النقوش البارزة « ذات الطراز المسطح » « وذات النحت الجميل » الذي يظهر فيه تأثير الفن الروماني للقرن الاول بعد المسيح .

ويقيم شغل فئة العمال الاولى البرهان على ان التقاليد السورية قد كان لها نصيبها في المجهود الفني العظيم الذي ندين له بوجود بعلبك ، وفي هذا دحض جديد لنظرية العالم الالماني اد . ڤيغاند (Ed. Weigand) الذي لم يشأ ان يرى في هندسة المكان المقدس وزخرفه الّا اموراً مستعارة من فن الامبراطورية الرومانية .

وما عدا سقوف المذبح العظيم التي نستطيع ان نؤرخ لها عن طريق المقارنة ثمة في بعلبك سقوف حجرية اخرى . فزخرف الفئة المحلية او «الطراز الخشن» قريب جدّ القرب من النقوش الناتئة التي تدلّس[1] قبة الردهة السفلى القائمة تحت ارض الهيكل من الجهة الجنوبية اما تاريخها فيعود الى النصف الاول من القرن الاول المسيحي . اما فنّ صناعة القبب الحجرية الشهيرة التي تتوّج رواق « هيكل باخوس » الداخلي المشيّدة حوالي ١٦٠ سنة بعد المسيح فاكثر تقدماً وحداثة من فنّ صناعة سقوف المذبح البرج ، واحدث من فن هذا الصنع ايضاً سقف (الهيكل المستدير) . واستناداً الى النقوش الناتئة نستطيع التأكيد ان المذبح البرج قد بُني في عهد اسرة فلافيان في النصف الثاني للقرن الاول

١) دلّس : لبّن وملّس ، والدليص : اللين البرّاق وماء الذهب .

المسيحي . وقد كان ذلك العهد الزمن الذي انجز فيه القسم الاهم من هيكل جوبيتر العظيم الذي ترتفع واجهته الباذخة ورواقه الداخلي فوق مستوى البلاط بعلو ٣٨ متراً .

فمن تجرّأ اذن على ان يقيم هذا البناء المتراصّ الرصف الذي جئنا على وصفه كحاجب يحجب انظار اولى العبادة ؟ ان لم يكن الكهنة سدنة المكان المقدس وحفظة التقاليد الدينية ؟ اجل انهم هم وحدهم الذين اقاموا هذا البناء امام الهيكل المشيّد على الطراز الروماني حرصاً على طقوس الذبيحة الجوهرية.

ومنذئذ يسعنا ان نتخيَّل طقسين دينيَّين يقامان في بنايتين في باحة الاضاحي فالمذبح الصغير القريب من الهيكل الذي اعادت انشاءه مصلحة الآثار وهو على « شكل برج ايضاً » من المحتمل انه كان مذبح الاضاحي الكبرى التي كان يقرّبها الكهنة. اما المذبح الكبير فقد كان مخصّصاً لاحتفال ديني اشد بساطة يأتيه بنفسه المؤمن الذي كان يقدّم قربانه من البخور والعسل وربما من الطيور وصغار ذوات الاربع .

والجماهير في روحتهم وجيئتهم المتواترتين وهي تحمل قرابينها قد ابلت درجات السُلَم لانها كانت تقوم (بالقربان على السطوح) اعني على الابراج والمصطبات. وعلى ما يبدو ان القربان على السطوح كان رائجاً في جميع الشرق القديم اذ كانت الفكرة الاولى للقيام بالعبادة ترى من المناسب ان يرقى المرء جبلاً او برجاً .

ومن رأي الاستاذ ر. ديسو (R. Dussaud) ان الشعار الديني الذي جاءت على وصفه قصيدة رأس شمرا في القرن السادس عشر قبل المسيح عندما ذكرت قربان الملك قريت قد انتشر في لبنان . ويفكر الاستاذان كولار وكوبل في ان هذه الطقوس الدينية كانت تجري ايضاً على برج « فقره » (Faqra) قرب فاريا، فهل نشاطر هؤلاء المؤلفين الرأي في ان القربان على البرج كان (قرباناً مشتركاً) ؟ اننا لنحجم متردّدين عن الاخذ بمثل رأيهم لانـه

صعب كل الصعوبة حمل لحم الاضاحي المذبوحة من المذبح الصغير الى قمة البرج. اما المصطبة فكانت ضيّقة كل الضيق لتستوعب مأدبة الاديان الشرقية المقدسة .

وبمناسبة ظهور البناية الجديدة لا بد من ان تعترضنا مشكلات عدة ! فكيف السبيل اذن لتعليل وجود رسم ديني واحد مرات كثيرة بين النقوش الناتئة كقضيب عطارد مثلاً ؟ وهذا القضيب نفسه يظهر كما تعلم في مخالب النسر الذي يزين السقف المزخرف فوق باب (هيكل باخوس) حيث كان يجري بخاصة تكريم الاله عطارد — ادونيس .

فهل نعتبر الاله ابن ثالوث هليوبوليس الاله الاكبر الموحد الذات مع هرمس — عطارد هادياً ومُدخلاً لذوي العبادة الصاعدين للتضحية على البرج ؟

وان كتاب الاستاذين كولار وكويل ليثير التفكير في امور عدة فهو يوضح بخاصة اهمية العبادة التقليدية والكهنة الوثنيين الذين اصرّوا على ان يقوم امام الهيكل الجبار الذي بنته جوالي بيروت وهليوبوليس الرومانيتين على الطراز الغربي برج المذبح المتراصّ الذي يبيّن تصميمه ومركزه وتنشئته بالشبه « البرونز » وقسم من نقوشه فنون الشرق القديم .

من شعراء القرى

أميّة بن ابي الصلت الثقفي

÷ - ٦٢٤ م ؟

بقلم بطرس البستاني

الطائف وبنو ثقيف

ليس في شعر أميّة واخباره المتفرقة ما يلقي نورًا على ولادته ونشأته . وانما نعلم أنه من اهل الطائف من بني ثقيف ؛ وانه حذق القراءة ، واطلع على الكتب الدينية عند النصارى واليهود . والطائف بلدة في الحجاز على مسيرة يوم واحد للطالع من مكة الى جنوبها الشرقي ، في بطن جبل مجاور لليمن ، يقال له غزوان ، شمالية يجمد فيها الماء ، وليس مكان غيرها بالحجاز يجمد الماء فيه . ولما سور حصين يردّ الغزاة عنها ، سمّي الطائف لطوافه بها ، فحملت اسمه بدلًا من وَجّ اسمها القديم .

وكان معظم سكانها من بني ثقيف ، قبيلة يختلف النسّابون في أصلها ، فيرفعها بعضهم الى مضر وغيرهم الى إياد . وينكر آخرون نسبتها في العدنانية ، فيجعلونها من بقية ثمود من العرب البائدة . والاقوال في ذلك كثيرة متضاربة ، متأثرة على الغالب بعوامل دينية وسياسية لما عُرف عن هذه القبيلة من أخبار في الجاهلية والاسلام لا تتلاءم وشواعر المسلمين . فهم يروون ان صاحب الفيل أبرهة الحبشي ، عندما بلغ الطائف بجيشه يريد الكعبة ليهدمها ، خاف بنو ثقيف على ربتهم اللّات ، فصرفوه عنها بالحسنى ، وبعثوا معه رجلًا منهم يدعى أبا رغال ليدله على مكة ، فمات هذا الرجل في الطريق . قيل مرّ النبي بقبره ، فامر برجمه فرجمته العرب ، فكان ذلك سنة في الاسلام[1] ! ولم تكن ثقيف أقل غلظة على محمد من قريش ، فانه ذهب بعد موت عمه ابي طالب الى

١) الاغاني : ٤ - ٣٠٣

الطائف يلتمس النصرة منهم . فاغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فاخذوا يسبّونه ويصيحون به حتى اخرجوه من بينهم . ولبثت ثقيف محالفة لقريش ، تقاوم الاسلام ولا ترضى ان تنزل عن دينها ، وتأسف كما يأسف القرشيون ألّا يكون قد نُزِّلَ القرآن على رجل من القريتين عظيم . ويريدون به الوليد بن المغيرة بمكة ، او عروة بن مسعود الثقفي بالطائف . وهي الى ذلك ممتنعة بحصونها لا ينال الحصار منها ، فلم تُسلِم الا في السنة التاسعة للهجرة بعدما فُتحت مكة واسلم من حولها العرب ، فخافت ان يتألبوا عليها ، فآثرت ان تنتحل الدين الجديد ، ولكنها اشترطت على النبي ألّا تحطم اربابها بأيديها .

وعرفت ثقيف بالذكاء والدهاء ومضاء العزم وجرأة النفس وانطلاقها . واخرجت للعرب طائفة من رجال الفكر والادب والسياسة ، فمنهم شاعرنا أمية ، والحارث بن كلدة طبيب العرب ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد ابن ابيه ، وهو من الطائف ثقفي النشأة والروح ، ان لم يكن ثقفي النسب ، وابنه عُبيد الله ، والمختار بن عُبيد صاحب الدعوة والثورة ، والحجاج بن يوسف ، وابو محجن الشاعر السكير الماجن . وفيهم اربعة من كبار رجال الدولة الاموية ناهضوا اهل البيت النبوي ، واخلصوا الخدمة للعرش السوري ، وأيدوه بسيفهم ولسانهم . فالمغيرة هو الذي اشار على معاوية بان يجعل يزيد وليًا لعهده ، وزياد انشق عن حزب علي بعدما استلحقه معاوية ، وانضمّ اليه فساق له العرب بعصاه . وعبيد الله قاتل الحسين بن علي في كربلاء ، والحجّاج بن يوسف هادم الكعبة بالمنجنيق ، وقاتل عبد الله بن الزبير ، يجور على اهل البيت ، ويختم ايدي جماعة من الصحابة بالرصاص ، ويوطئ المنابر للامويين بعد نبوّها عنهم . فغير عجيب ان تكون ثقيف عرضة لسخط السياسة الهاشمية من علويّة وعبّاسيّة ، فتقضي باتهام ابنائها ، والطعن فيهم لتشويههم والتنقص منهم .

وكان امية بن ابي الصلت من اشد قومه اذىً للاسلام ، في زمن النبوة ، فقد حالف قريشًا وحرّضهم بشعره على المسلمين ، ورثى قتلاهم في موقعة بدر :

ماذا ببدرٍ والعَقَنقل من مَرازبة جَحاجِحْ

ولم يقف عمله عند هذا الحد بل طمع في النبوة يريدها لنفسه ، وينكرها

على الرسول ، فكان يقول قبل موته : انا اعلم ان الحنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد[١]

فاجتماع هذه السيئات لبني ثقيف ، لا جرم ، يثير الحفيظة في صدور المسلمين الاول ، ولا سيما الهاشميين ، ويجعل للروايات والاحاديث مجالا يختلط فيه الصحيح بالموضوع . فقد روى الزُهريّ حديثاً للنبي يقول فيه : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحب ثقيفاً ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبغض الانصار .»[٢] وزعموا ان قسيّ بن مُنبّه جد الثقفيين الاعلى هو من بقية ثمود ، وانه كان عبداً لرجل يقال له ابو رِغال او كان ابو رِغال والده . وقالوا ايضاً ان ابا رِغال كان ملكاً بالطائف يظلم رعيته ، فاغتصب يوماً عنزة لامرأة تُرضع ابنها اليتيم بلبنها ، فمات الطفل جوعاً . ورمى الله ابا رغال بقارعة الطريق فاهلكه ، فرجمت قبره العرب . وهناك رواية ، كما قدّمنا ، تجعل ابا رغال دليل صاحب الفيل الى مكة ، وقد رجم قبره لذلك ، وهذا أحدث زمناً من الاول فلا يصح ان يكون الجد الأعلى لثقيف .

فالروايات ، كما يتبيّن ، مخالفة الوجوه ترمي في اكثرها الى التنقص من الثقفيين وتشويه نسبهم ، بادية النقمة عليهم ، لا تهدي الباحث الى نتيجة يمكن الاطمئنان اليها . ويرى الأب لامنس ان العلويين والعباسيين وضعوها على الثقفيين كرهاً بزياد وعبيد الله والحجاج وسواهم من اهل الطائف الذين حازبوا الامويين ونصبوا للسياسة الهاشمية . وهو ، الى ذلك ، يزعم ان قبر ابي رغال حرَم معبود أزرى به الاسلام ، ولم يكن رجمه في الجاهلية للتحقير بل للتعظيم شأن رمي الجمار في منى ، وشأن لحودهم تجعل فوقها الحجارة قبل ان يعرفوا بناء القبور . ولكن اذا عدنا الى شعر امية بن ابي الصلت ، نجده في مجمهرته يفتخر بان قومه هم الذين قتلوا العبد ابا رغال :

وهم قتلوا السبي أبا رغال بنخلة حين إذ وسَق الوطينا[٣]

---

١) الاغاني : ٤ — ١٣١

٢) الاغاني ٤ — ٣٠٧

٣) الوطين : حزام الراحلة : يقال : وسق الوطين ، كناية عن الجمع للغزو .

وواضحٌ انه يشير هنا الى دليل ابرهة لينفي التهمة عن قبيلته ، ويخرج هذا الرجل الرجيم منها . وهو في تلك القصيدة كما في غيرها ، يرفع نسب ثقيف الى إياد لا الى مضر ، وكلتاهما نزارية عدنانية .

دينه امية

يتفق الرواة على ان امية لبس المسوح تحنثاً ، واعتزل عبادة الاوثان ، وآمن بالآله الواحد ، منتحلاً دين الحنيفة ، وفي ذلك يقول :

كلُّ دينٍ يومَ القيامةِ عند – اللهِ ، إلّا دينَ الحنيفةِ ، زُور

والمفهوم من الكتب العربية القديمة ان الحنيفية هي ملّة ابراهيم ، على بساطة التوحيد قبل نزول الشرائع ، اي انها ليست اليهودية ولا المسيحية . غير ان المستشرقين الذين عُنوا بتقصّي آثار هذه الجماعة أثبتوا انها فرقة متنصرة دخلت عليها عقائد غريبة عن النصرانية . وكذلك الاب لويس شيخو دلَّ على مسيحيتها بشواهد من الشعر الجاهلي ، وبما جاء في التواريخ الركينة كسيرة ابن هشام عن تنصر بعض المتحنفين امثال ورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوج الرسول [١] .

والظاهر ان مكة كانت آهلة بطائفة من هؤلاء المتحنثين من قريش . ويزعم الرواة ان عبد المطّلب اول من أدخل الحنيفية الى مكة ، فكان اذا اهلَّ رمضان ، صعد الى جبل حِراء يطعم المساكين ويرفع من مائدته للطير والوحوش الى رؤوس الجبال . وهذه عادة مسيحية تنبّه لها المستشرق كليمان هيوار في كتابه « تاريخ العرب » .

ويعلم من يطّلع على اخبار مكة والطائف ما بين البلدين من علاقات اقتصادية ودينية ، ومصاهرات ومحالفات . فقد كانت تجارة مكة رائجة في سوق الطائف ، وفواكه الطائف تحمل الى مكة وتباع فيها . والموسرون من قريش يتخذون الطائف مصيفاً لهم ، ويملكون فيها البيوت والمزارع . وهم يعظمون اللات ربّة ثقيف ، كما يعظّم الثقفيون انصاب الكعبة واصنامها .

١) الاب شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ١١٨ – ١١٩

وأفضت العلاقات بينهم الى ان يتصاهروا ويتحالفوا . فرأى القرشيون من بني ثقيف اعواناً لهم على المسلمين . فكان من الطبيعي ان تدخل الحنيفية الى الطائف ، فينتحلها قوم من ثقيف اسوة بانسبائهم وحلفائهم ، ويكون أمية ابن أبي الصلت بعض منتحليها ، وهو شاعر على شيء من العلم شأن كثير من ابناء الطائف ومكة ، قرأ الكتب الدينية ، واطلع على ما خلص اليه من العقائد اليهودية المسيحية . وكان يختلف الى مكة متصلاً بالقرشيين ، وامه قرشية من عبد شمس ، فغير عجيب ان يتأثر بتحنفيهم فيسلك طريقتهم في التحنث ولبس المسوح . وقد يصحب تجارهم الى سورية ، فيزور معهم الاديار والكنائس ، ويخالط الرهبان فيأخذ عنهم ، مما يدل على ما في نفسه من نزوع عن الشرك ، وميل الى التنصر وعبادة الله وحده . وقيل انه حرّم الخمرة على نفسه ، مع انهم يروون انه شربهـا قبل موته ، فاذا صحّ هذا التحريم ، فيكن حمله على محل الزهد وترك الملذات ، او هو من العناصر الغريبة التي هضمتها الحنيفية المتنصرة . وفي شعر امية بيّنات واضحـة على نصرانيته لا يصح معها ان تعتبر الحنيفية مقصورة على ملة ابراهيم قبل نزول الشرائع ، وان تكن مسيحيتها غير خالصة من شوائب البدع التي تفشّت في جوانب جزيرة العرب ، تمازجها العقائد اليهودية ممازجة قوية ، كنصرانية الاحباش ، وكان منهم في مكة طائفة كبيرة ، تجار وعبيد . فهي ، على ذلك ، شديدة التعلّق بالكتاب المقدّس في عهده القديم ، تكثر من الالتفات اليه ، والتحدث عنه . ولا تخلو من اثر التقاليد التلمودية ، يظهرها شعر امية في وصف السماء والملائكة ، وسوق الهالكين الى النار وهم ينادون بالويل والثبور :

وسيق المجرمون ، وهم عراة ، الى ذات المقامع والنّكالِ
فنادوا : ويلنا ويلاً طويلاً ! وعجّوا في سلاسلها الطوالِ

وله عدة قصائد مستوحاة من التوراة والتقاليد العبريـة في الكلام على الخليقة ، والطوفـان ، وخراب سدوم ، وطاعة ابراهيم لربه ، يوم عزم على التضحية باسحق حتى فداه الله بذبح عظيم :

بينا يخلعُ السرابيل عنهُ ، فكّهُ ربُّهُ بكبشٍ جُلالِ

ولكنه يخلط قصة الطوفان بعقائد غريبة عن التوراة تزعم انه كان ينطق يومئذ كل شيء ، وان الديك كان نديماً للغراب ، فشربا مرة عند خمّار وليس معهما مال ، فرهن الغراب الديك وذهب ليأتي بالثمن ، فخان صاحبه ولم يرجع ، فبقي الديك محبوساً :

بآيةِ قام ينطقُ كلُّ شيءٍ ، وخان امانةَ الديكِ الغرابُ

على ان الحنيفية لا تغفل العهد الجديد ، ولمن الحق ، في تركتها على القديم ، وامية في شعره يعطينا الشواهد على يهوديتها المتنصرة ، فنسمعه يذكر الحيوانات المحيطة بالعرش الالهي ، فاذا هو مردّد ما جاء في رؤيا يوحنا :

رجل وثور تحت رجل يمينه ، والنسر للاخرى ، وليثٌ مرصدُ

وورد ذكر المسيح عنده مرارًا ، منها قوله في رجعته :

أيامَ يلقى نصاراهُم مسيحَهُمُ ، والكائنينَ له وُدًّا وقُربانا

وقوله في انتصاره على المسيح الدجال :

إذِ المسيحُ يقتل المسيحا

وروى له الأب شيخو[1] قصيدة عن كتاب البدء للمقدسي تكلم فيها على ميلاد المخلص ، ويسميه عيسى بن مريم :

وفي دينكُم من ربِّ مريمَ آيةٌ مُنبئةٌ بالعبدِ عيسى بنِ مريمِ

ولا يخفى ان لفظة العبد تقال للمسيح مستنكرة عند النصارى . ولا تدل على مسيحية صافية . وكذلك اورد في القصيدة نفسها اخبارًا عن الطفل الالهي وامه العذراء ، لا تثبتها الاناجيل الصحاح ، فردها الاب شيخو الى الاناجيل المنحولة ، كقوله ان يسوع تكلم في المهد تبرئة لامه عندما عرف ذووها بانها حامل فأوسعوها لوماً :

وقالوا لها من حولِها : جئتِ مُنكَرًا ، فحقٌّ بأن تُلحَيْ عليه وتُرجَمي
فأدركها من ربِّها ثمَّ رحمةٌ بصدقِ حديثٍ من نبيٍّ مُكلَّمِ
فقال لها : إنّي من الله آيةٌ ، وعلَّمني ، واللهُ خيرُ معلِّمِ

---

١) الاب شيخو : النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية ١٨٧

وأرسلتُ ، لم أُرسَل غوِيّاً ، ولم اكن شقيّاً ، ولم أُبعث بفُحشٍ ومأثم

ويوسعنا ان نضيف هذه الابيات الى شاعر في الاسلام ، لانها تتفق وما جاء في القرآن عن ميلاد عيسى وتكلمه في المهد ، وفيها من الالفاظ والتعابير ما يُشعر انه مأخوذ من سورة مريم . هذا ، ونحن لا نستطيع ان نقبل شعر أمية جملة دون ان يساورنا الشك في بعضه ، فهناك قصائد تروى له ولغيره ، وقصائد عباسية اللغة ، قوية الروح الاسلامية . فمن المعقول ان يكون قد وضع عليه شعر ليس له يد فيه ، كما وضع على غيره من شعراء الجاهلية ، خصوصاً ان الرواة صرفوا معظم عنايتهم الى التحدث عن حياته الدينية ، جاعلين لها صلة ببعث الرسول العربي ؛ فلا يستغرب ان ينحلوه شعراً دينياً مستوحى من القرآن ، كما نحلوه قصيدة في مدح النبي ، ضعيفة التركيب ، بيّنة التوليد ، وزعموا انه اراد ان يسلم ، فمنعته قريش ، شأنها مع الاعشى ، وذكّرته قتلى بدر ، وفيهم عُتبة وشَيبة ابنا خاله ربيعة بن عبد شمس ، فترك الاسلام ، وجدع انف ناقته ، وشق ثوبه وبكى ، ورثاهم بقصيدته المشهورة .

على ان امية مع تعبده وتنسكه واطمئنانه الى دين الحنيفة ، لم يلبث ان غلب عليه جوّ زمانه ، فحمله مثلما حمل غيره من معاصريه الكهان على الطمع في النبوة ، إلّا ان سعيه خاب ، وعادت صفقته خاسرة .

نبوءة

يستوقف الباحث في تاريخ الجاهلية ما يلقى من اسماء عشرات الكهان والعرافين ، وما يقرأ عنهم من الاساطير والخرافات ، حتى ليجد من نفسه رغبة ملحّة في اجتلاء هذه الظاهرة الروحانية خلال المادّية الغالبة ، في عصر يُعدّ ابتداء للانتقال من الشرك الى التوحيد . ومعظم هؤلاء الكهان يسكنون المدن والقرى المعمورة حيث ترتكز العقائد الدينية ، بخلاف ما هي عند البدو المترحلين . وكان العرب يعتقدون ان لكل كاهن رئيًا من الجن يسترق له احداث المستقبل من كلام الملائكة ، فيلقيها في اذنه ؛ وجاء في القرآن ما يُشعر بتصديق هذه العقيدة فانتقلت الى المسلمين ، وهي تشبه ما تقول به

الكنيسة من ان الارواح الشريرة بوسعها ان تقف على شيء من المستقبل فتوحي به الى بعض الاشخاص .

والبلاد الشرقية هي اخصب الاقطار لظهور الكهانة وانتشارها ، ذلك بانها موطن الانبياء ، ومهد الاديان ، فطبيعي ان يصبح في ابنائها تشوّف الى الرجم بالغيب ، واستطلاع خبايا المستقبل . وطبيعي ايضاً ان يكثر الكهان في جزيرة العرب، او على اطرافها ، وهي محاطة بشعوب عرفت عندها الكهانة منذ العصور القديمة كالبابليين والكلدانيين والمصريين وسواهم . اضف الى ذلك ما في الجزيرة من اليهود والنصارى ، وما كان لهم من يد في نشر الكهانة ، وتوجيه الانظار الى النبوّة . فالتواريخ الاسلامية القديمة تكثر من التحدث بنبوات رهبان النصارى واحبار اليهود عن البعث المنتظر . وكان يرجعون بذلك الى كتب عندهم ، عرف منها في القرن الاول للهجرة كتب دانيال وكتب الملاحم وسواها . فاليهود ينتظرون مجيء المسيح المخلص ، ويبثون هذه الفكرة فيمن جاورهم من العرب . والمسيحيون يقولون برجعته قبل الدينونة . وهؤلاء واولئك هم اهل الكتاب ، عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم . فلا بدع ان يكون لاقوالهم تأثير في نفوس العرب الذين خالطوهم في الشام والعراق والحجاز واليمن ، فيكثر الكهان بينهم ، ويقوم فيهم من يطلب النبوة ، كما اثرت من بعد في العصور الاسلامية فاوجدت فكرة المهدي الذي يأتي ليطهر الارض ويملأها عدلاً بعد ما ملئت جوراً وفساداً . يدل على ذلك انه ما كاد محمد يظهر رسالته ويدعو العرب الى ترك الاوثان وعبادة الاله الواحد ، حتى قام عدة اشخاص يدّعون النبوة طمعاً فيها او حسداً كمسيلمة الكذاب باليمامة ، والاسود العنسي في صنعاء ، وسجاح بنت الحارث التميمية بين النهرين ، وهذه تنبأت بعد موت الرسول . وظهر قبل بعثه رجل من بني عبس يقال له صفوان بن خالد كان على منهج الملة الحنيفية ، فدعا الناس الى التوحيد ، فآمن بعض العرب بنبوته ، قيل ان ابنته جاءت الى محمد ، فسمعته يقرأ : قل هو الله احد . فقالت : قد كان ابي يقرأ هذا .

فالشعب العربي مضطرب بين الشرك والتوحيد ، تتمشى في وثنيته عقائد

مسيحية مبتدعة وغير مبتدعة ، وعقائد يهودية خالصة او غير خالصة ، فيأخذها كلها أخذاً قريباً يختلط بعضه ببعض ، فاذا هو حائر متردد في عبادته ، يذكر الله ويريق الدم على الانصاب ، ويجل اللات والعزى ومناة ، الغرانيق العلى ، بنات الله الشفيعات . ويستسلم الى القدر واحكامه فيقع في الدهرية لغموض مصير النفس عليه . ويلجأ الى الكهان والعرافين مستكشفاً عندهم عن اسرار الغيب . وكأن امية بن ابي الصلت قد عبّر عن نفسية هذا الشعب بقوله :

الا نبيٌّ لنا منّا فيُخبرنا ما بعدَ غايتنا من رأسِ مَحيانا

ولعله كان يفكر وتتنذ في نفسه فتتمنى بعث نبي من العرب يخرجهم من حيرتهم ، ويطلعهم على مصير النفس بعد الحياة . وقد يكون هذا البيت مصنوعاً لان سائر شعره ، على ما فيه من ذكر الانبياء ، لا ينطق بتشوفه الى النبوة. فلربما وضعه الرواة ليدلوا به على حاجة الناس في ذلك الزمن الى رسول يهديهم ، ثم ليؤيدوا ما تناقلوا عن امية من اخبار تنبئه . فهم ينكرون عليه النبوة اصلاً، ولكنهم يضيفون اليه الخوارق ، ويعدّونه في طبقة الكهان الذين لهم رئيٌّ من الجن يوحي اليهم . ويتنبأ كأكثرهم عن البعثة ، ويشارك في التبشير بها ، راجياً ان تكون له لا لغيره . وقد عني الزهريّ بنقل هذه الاخبار عنه ، وهو من الائمة الذين اشتغلوا بتدوين الحديث في خلافة عمر بن عبد العزيز . روى ان امية كان له رئيّ من الجن يتبعه ويوحي اليه . فخرج مرة في سفر ، فرُفعت له كنيسة ، فانتهى اليها ، فاذا شيخ جالس ، فقال لامية حين رآه : انك لمتبوع ، فمن اين يأتيك رئيك ؟ قال : من شقّي الايسر . قال : فأي الثياب أحب اليك ان يلقاك فيها ؟ قال : السواد . قال: كدت تكون نبيّ العرب ولست به . هذا خاطر من الجن وليس بملك . وان نبي العرب صاحب هذا الامر يأتيه من شقه الايمن ، واحب الثياب ان يلقاه فيها البياض .

وروى ايضاً ان امية اتى ابا بكر فقال : يا ابا بكر عمي الخبر . فهل احسست شيئاً ؟ قال : لا والله . قال : وجدته يخرج العام

ويحدثنا صاحب الاغاني عن الحرمي ان امية علم ببعثة الرسول من راهب

في الشام . وكان فيها ومعه جماعة من العرب ومن قريش . فمر بكنيسة فدخلها ثم خرج ومضى . ثم عاد اليها ثانية وخرج منها بأسوإ حال . فسأله ابو سفيان بن حرب عن امره . فقال : ان هاهنا راهباً عالماً أخبرني انه بعد عيسى ، عليه السلام ، ست رجفات؛ وانا اطمع في النبوة واخاف ان تخطئني. فلما رجعت ثانياً قال لي : قد كانت الرجعة ، وقد بُعث نبي من العرب . فيئست من النبوة ، فاصابني ما رأيت اذ فاتني ما كنت اطمع فيه .

وهكذا كان امية كلما مر بكنيسة يعلمه راهبها ان النبوة لغيره ، فيبوء بالخيبة واليأس . ومع ذلك نجد من الرواة محاولة جميلة لاعطائه اياها يتولى تقديمها اليه ملكان بصورة الطير ، فلا يقبلها منها لانه ليس هو المعدّ لها . اخبرنا الزهري ان امية دخل يوماً على اخته ، وهي تهيئ أدَماً لها . فادركه النوم فنام على سرير في ناحية البيت . واذا بجانب من السقف قد انشق ، وطائرين قد وقع احدهما على صدره ، ووقف الاخر مكانه . فشق الواقع صدره ، فاخرج قلبه فشقه . فقال الطائر الآخر : اوعى ؟ (اي أحفظ ما ما ألقي اليه ؟) قال : وعى . قال : أقبل ؟ قال : أبى . فرد عليه قلبه. ثم عاود التجربة الجراحية مرتين أخريين . وفي كل مرة يعي ولا يقبل ، ويتبعها طرفه ويقول :

لبَّيكما لبَّيكما ها انذا لديكما !

فلما يئسا من قبوله بعد ثلاث تركاه ، وانطبق السقف ، وجلس امية يمسح صدره ، ويشكو حزًا فيه . وهذه القصة فيها شبه بما يرويه ابن اسحق من ان ملكين بصورة رجلين بثياب بيض ، معهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً جاءا النبي محمدًا وهو غلام ، فشقا بطنه ، واستخرجا قلبه ، فشقاه وطرحا منه علقة سوداء ، ثم غسلاه بالثلج حتى انقياه .

ويضيفون الى امية من الخوارق ما يُضاف الى سليمان، وهو معرفته بلسان الحيوان والطير ، فيذكرون انه كان ذات يوم جالساً مع قوم ، فمرت بهم غنم ، فثغت شاة ، فقال للقوم : هل تدرون ما قالت الشاة ؟ قالوا : لا . قال : انها قالت لسخلتها : مرّي لا يجئ الذئب فيأكلك كما اكل اختك عام

اول في هذا الموضع . فقام بعضهم الى الراعي فقال له : اخبرني عن هـذه الشاة التي ثغت ، ألها سخلة ؟ قال : نعم ، هذه سخلتها . قال : اكانت لها عام اول سخلة ؟ قال : نعم ، واكلها الذئب في هذا الموضع .

ورووا انه بينما كان يشرب مع اخوان له في قصر غيلان بالطائف ، اذ سقط غراب على شرفة ، فنعب نعبة ، فزجره أمية . فقال اصحابه : ما يقول ؟ قـال : يقول انك اذا شربت الكأس التي بيدك مت . ثم نعب الغراب نعبة اخرى ، فعاد امية الى زجره . فسأله اصحابه عن الخبر ، فقال : زعم انه يقع على المزبلة ، اسفل القصر ، فيستثير عظماً فيشجى به فيموت . ثم وقع الغراب على المزبلة ، فأثار العظم ، فشجي به فمات . فانكسر أمية ، ووضع الكأس من يده ، وتغير لونه . فقال له اصحابه : ما اكثر ما سمعنا بهذا وكان باطلاً . وما زالوا عليه حتى شرب الكأس ، فمال الى جنبه واغمي عليه . ثم افاق فقال : لا بريء فاعتذر ، ولا قويّ فانتصر ، واسلم الروح.

وكأن الرواة ارادوا بهذا الهتاف الأليم يخرجه الشاعر في ساعته الاخيرة ، ان يظهروه بمظهر النادم الخائف ، معترفاً بذنبه وضعفه بعدما طمع في النبوة ، وقاوم لاجلها الاسلام . فقوله هذا بمثابة تكذيب لادعائه ما ليس له .

على ان هناك رواية اخرى تقول انه مرض قبل موته ، فجعل يقول : قد دنا اجلي ، وهذه المرضة منيتي ، وانا اعلم ان الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلني في محمد . ثم اخذ يستغفر ربه فيقول : لا بريء فاعتذر ، ولا قويّ فانتصر ، وينشد اشعاراً في ذلك منها قوله :

ان تغفرِ اللّهمَّ تغفرْ جمّاً وأيّ عبـدٍ لك لا ألمّا

الى ان قضى نحبه وهو على اشد ما يكون من الخوف والندامة .

مراجع البحث

ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ٣ – ٤ – ٨

الجاحظ : الحيوان ٣ – ٤ – ٧

ابو زيد القرشي : جمهرة اشعار العرب

ابن قتيبة : الشعر والشعراء

ابن سلام : طبقات الشعراء

البحتري : الحماسة

ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ – ٣

ياقوت : معجم البلدان

ابن هشام : السيرة النبوية

البغدادي : خزانة الادب ١

الاب لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

« « « : شعراء النصرانية

فان فلوتن : السيادة العربية (ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم – مصر)

H. Lammens : *L'Islam.* Imprimerie Catholique. Beyrouth, 1941.

H. Lammens : *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire.* Imprimerie Catholique. Beyrouth. 1928.

H. Lammens : *Études sur le siècle des Omayyades.* Imprimerie Catholique. Beyrouth, 1930.

G. Contenau *La Divination chez les Assyriens et les Babyloniens.* Payot. Paris, 1940.

A. Cohen : *Le Talmud.* Payot, Paris, 1933.

Cl. Huart : *Histoire des Arabes.* Geuthner. Paris, 1912.

الأميرة هيفاء والامير فخر الدين الكبير

رواية لبنانية تاريخية ادبية

بقلم
الاب مبارك ثابت اللبناني
رئيس دير المخلص في البرامية

تصدير

تقدم لابناء الضاد الكرام هذه الرواية الطريفة اللطيفة التي دبَّجها يراعُ كاتبٍ عبقريّ خدم الدين والعلم والوطن بلسانهِ وقلمهِ طيلة نصف قرنٍ ، بما نظم ونثر ونقَّح وهذَّب وعرَّب وصنف من مباحث وروايات وكتب ومقالات يترقرق فيها ماء الطبع ويرتفع لها حجاب القلب والسمع ، هو الاب مبارك ثابت الذي يرشّ قلمه الخصاب ندى فرائد الفوائد الدينية والوطنية والعلمية والتاريخية ، جائلًا في جميع الميادين الادبية ونائلًا أُولى جوائز المباريات القلمية ، يسقي ذلك القلم من معتقة الدير ويجريهِ على الطروس ، فيخطُّ بيانًا وسحرًا لاعبًا بالعقول وبالنفوس : « لعب المدامة بالتزيف الشارب » .

وما فتئَ هذا القلم الجمُّ المحاسن البعيد عن المطاعن الذي سوَّد في الحرب الكبرى الماضية اكداسًا من الورق ، ناضرًا فتيًّا بالرغم من شيخوخته يمشي على سجيَّتهِ لا يزلُّ ولا يكبو ولا يغلُّ ولا ينبو ولا يتحنى ولا يسهو ولا ينالهُ كلل او فتور ، ولا تحول دون اضطراده عقباتٌ او حؤول ، يتدفَّق من انبوبهِ معينُ الآداب الصافية تدفُّقَ سلسبيل رقراق على جنَّاتٍ خضراء ، فيضحكُ الزَّهرُ مفترًّا عن الدررِ .

وطالما عشق هذا القلم لبنان فتغنَّى بمحاسنه ومفاتنه وعظائمه ومفاخره في

صحافة الوطن والمهجر ، مصوّرًا ابدع تصوير مطلع فجره وسحر شروق شمسه وغروبها ومسابح قمره ونجومه ، وطيب مائه وهوائه وصفاء سمائه وجمال ارزه وكمال مناظره ، يبسطها امام عينيك بحقيقتها وروعتها ، عاقدًا في كل ذلك وفي فصول لبنان الاربعة ، الفصول الطرائف الظرائف ، ومنشئًا من الروايات الادبية الاخلاقية الوطنية ما يصحّ ان يقال فيها انها بدائع وروائع بما خلع عليها من رشاقة العبارة وجودة المعنى وجمال الوصف ودقّة التصوير وكساها من ثوب موشّى بالنضار يسترعي الابصار ويستهوي الافكار .

وما رواية « الاميرة هيفاء وفخر الدين الكبير » الا حلقة من حلقات رواياته الذهبية ، وحسناء من حسان لبنان ذوات الحسن الباهر والقدّ الأهيف الزاهر التي انبتتها تربة لبنان ولم تفتح عينيها على غير مشاهده الفاتنة وأمجاده الخالدة ، ترسم لك ايها القارئ ريشة الاب ثابت الناعمة تلك الفتاة بالوانها وخطوطها كما أبدعها الله غادةً هيفاء ساحرةً فتّانةً حَييّةً نفورًا من الريبة ، فكأنَّ عينيك تتنقل في مباهجها على بُسُطٍ من سندس خضر ، لا تستوقفك في تضاعيفها كلمةٌ نابية ولا عبارةٌ ركيكة ولا معنًى سخيف ، بل تستدرجك بغرياتها الى الاستماع بلذّة بريئة طاهرة فتنثني بنشوتها كما انتشيتُ وتثني على ناسج بردتها كما اثنيتُ وتتمنّى كما تمنّيتُ ان يظلّ ذيّالك القلم الذي خطّها ، مرهف الحدّ لا يدانيه صدأٌ او مشيب ، يرفد العالم العربي اسلاك الدرر ومجالي الغرر يستنزلها ويستلهمها من سماء دارة قمر دير القمر .

جبيل – دير سيدة المعونات
في ٣٠ تموز سنة ١٩٥١

الاب انطونيوس شبلي
اللبناني

توطئة

غنيٌّ عن البيان ان مطالعة التاريخ مدرسة مفتوحة الابواب مجّانة سهلة الورود . مدار تعليمها على تهذيب الاخلاق وتطهير العواطف وتقويم السيرة وتعشّق الفضيلة وتنكُّب الرذيلة مع مـا يلحق ذلك من تقوية نظر العقل ، وإذكاء جذوة الفهم ، وتوسيع نطاق المعرفـة وإرهاف باتر العزم في معارك المنافسة في الخير ، قطعاً لعوائق التشبه بالكرام ، ودكّاً لحواجز البلوغ الى مراتب العظام . الى سائر ما يجني المطالعُ من قطوف الفوائد اليانعة في بساتينها الناضرة ، وما يغترفه الواردُ من سلسبيل ينابيعها الغزيرة الصافية .

غير ان كثيرًا منْ شبّان عصرنا مُعرضون عن هذه المطالعة الحافلة بالفوائد انقيادًا لما عندهم من ميلٍ الى مطالعة ما تغريهم به اللذّة دون اكتراثٍ لخسارة النافع وربح الضارّ .

فمجاراةً لاهوائهم ورغبةً في نفعهم نزُفُّ اليهم هذه الرواية جامعين فيها بين النافع واللذيذ ، حتى اذا اخذوا في قراءتهـا تجتذبهم اللذّة البريئة الى الفائدة ، وتقودهم بيدها الناعمـة الى موطن الإلمام ببعض الحوادث التاريخية الخطيرة التي كان مسرحها وطننا اللبناني الكريم عهدَ اميره الخطير فخر الدين المعني الثاني الملقب بالكبير[١] . الرواية تاريخية باحداثها واشخاصها ومواقعها الا ما أُدمج في بعض فصولها من مبتدعات الخيال ، من مقتضيات التزيين والتشويق والتكميل .

تلك خدمة للوطن وتاريخه المجيد وابنائه الاعزّاء ، لا نسألهم لها الا الحظوة والقبول .

---

١) وُلد فخر الدين المعني الثاني الكبير عام ١٥٧٢ ، وحكم لبنان عام ١٥٩٠ ، وقُتل عام ١٦٣٥

١

نزعة الى الفتح

صبيحة يوم من شهر ايار من عام ١٦٠٠ كان يوسف باشا سيفا جالسا على مقعدٍ في احدى علالي داره في عكّار[١] ينظر من طاقةٍ الى الطبيعة عروس الربيع الحسناء. وقد برزت في حلّةٍ من السندس تهزهزها ايدي الصبا تحت برنس. شغافٍ من ذهب الاشعة خلعته عليها الغزالة اول إشراقها من فوق الجبال.

وفي الجهة المقابلة من القاعة باب مفتوح ، منه الى النافذة مجرى هواء يلاطف ما هنالك من اثاث وشعاعٌ على الطنافس المفروشة نافذ من الباب بجسم اتساعه وطرفهُ على قدمي الباشا يمثل بساطاً من ذهبٍ وهّاجٍ مُدَّ في وسط القاعة . ومنه على علو مترٍ شبه ستارٍ متموّجٍ نسج من هباآتٍ مرئية متلوّنة تروح وتجيء في سرابٍ اصفر وهي متشابكة متداخلة في كل صوب .

وكأنَّ هذا المشهد الجميل استرق عين يوسف فجعل يتأمله وقد القى في نفسه خواطر فأسند رأسه بانامله وغاص في لجة التبحّر . وانه لكذلك اذ دخل عليه غلامٌ يحمل طبقاً من ذهبٍ بنقشٍ عجميٍ عليه فنجان كبير من خزفٍ صينيٍ ابيض في ظرفٍ من فضةٍ مثقّبٍ من الصياغة المعروفة « بالكرشفت » وفي يده ابريقٌ من فضة ايضاً بديع الصنع فيه قهوة بنٍّ تنبعث منها رائحة تنعش الفؤاد. حيّا سيده وصبَّ القهوة وناوله واخذ غليوناً من خزفٍ احمر حشاه تبغاً وجعل عليه جذوة فأخذه الباشا من يده وامتصّ امتصاصةً من القهوة وتلاها بمصّةٍ من طرف الماسورة وهي انبوبٌ طويل من خشب الابنوس ، فخرج من فيه ومنخريه دخانٌ ابيض كثيف طيب العرف صعد متلوياً في الهواء . وقال للغلام: عليَّ « بالكاخية » المدبّر . فأدخل عليه رجلاً ربع القامة ابيض الوجه والشعر ، لامع العينين بادي الهيبة والوقار فأجلسه يوسف الى يمينه وامر له بالقهوة والغليون وقال : انظر يا ناصر الى هذا الشعاع كيف تلعب فيه الهباآت المتراكمة هكذا تلعب بفؤادي الافكار . فقال ناصر :

١) كانت عكار القديمة شرقي قرية ببنو هدمها الامير فخر الدين المعنيُّ عام ١٦١٨ للبلاد ، وقد اخلاها يوسف باشا سيفا منهزماً من وجهه الى قلعة الحصن كما سيجيء.

— ماذا يقلق سيدي ولم تطمح نفسك الى مجدٍ إلّا وطأ لك ظهره وعنت لك رقابه . قال :

— هيهات ان اتفيأ ظلّ الراحة ولي همّةٌ شمّاء . لا ترتضي النجم مقعداً . لقد ضربت اطنابي على امرٍ ولستُ بناكصٍ عنه وان كان دونه خرط القتاد . قال :

— الى اية منزلةٍ تنزع همتك وقد بلغت الى رفعةٍ لا تسامى وعزة لا تُغالب . وبسطت رواق حكمك على الشطر الاكبر من لبنان . ورفعت عَلَمك المظفّر خافقاً على السهول والجبال . وحملت على الحكام الاعزّاء . فجدعت انف عزّهم وقوّضت سرادق مجدهم . واستأصلت شأفة اكثرهم وتمنّعت من بقي منهم الذلّ والهوان . وصرت المسيطر على البلاد من مقتس الموج الى مرمى الثلج . من نهر الكلب الى النهر الكبير الى تخوم انطاكية فماذا تروم بعد هذا الفتح العظيم الذي ألبسك مهابةً تخشع امامها العيون وجلالةً تعنو لها الجباه ؟ قال :

— من رضي من دهره بنصف النصيب فان هو الا نصف انسان . ان نفسي تطمح الى غايةٍ تتراجع عنها سوابق الهمم .

وجعل يده على مقبض سيفه وقال : بهذا السيف استوليتُ على لبنان الشمالي وبه اريد الاستيلاء على لبنان الجنوبي .

يوسف باشا سيفا علم من اعلام اسرة سيفا الكردية . جرت بينها وبين آل شعيب وقائع دامية تنازعاً على حكم طرابلس والاقاليم الشمالية . وذلك ان المماليك وكلوا الى آل سيفا حراسة جون عكار وسهل بلاد طرابلس وعوّلوا عليهم في تأمين الطريق من تعديات النصيرية والعكاريين الجبليين فزاحمهم على السلطة بنو شعيب فاستنفر عليهم سيفا الامراء من بني عسّاف فناصروه عليهم حتى كسر شوكتهم واخضع رقابهم وضرب عليهم الذل فخلا له الجو بعدهم من منازعٍ وخصيم .

وأصل الامراء العسّافيين من اسرةٍ تركمانية ولّاهم المماليك حراسة كسروان فجعلوا قاعدتهم غزير وبنوا لهم فيها ثكنةً ومساكن . ثم انهم ضافروا

السلطان سليماً الاول على المماليك فاقرهم على كسروان وبسط ولايتهم على بلاد جبيل فتقويت شوكتهم واشتدّ بأسهم وكان اشهرهم الامير منصور عساف تربّع في دست الامارة من عام ١٥٢٢ الى عام ١٥٨٠ وهو رجل عالي الكعب واسع الصدر شديد البأس كثير الحيلة حسن التدبير مدّ حكمه من بيروت الى عرقا .

وكان في كسروان اسرة مارونية تعرف ببيت حبيش اصلهما من قرية يانوح في لبنان الشمالي نجلت الى كسروان فراراً من غزوات المتاولة آل حماده وجد عندها الامير منصور جراءةً واخلاصاً فقرَّبها وكتب الى كبيرها « الاخ العزيز » فاصبح شيخاً وسرى لقب شيخ ، الى جميع اعضائها[1] واصطفى الامير منصور من رجالها مؤازرين واعواناً يأنس بناحيتهم ولا يصدر الا عن رأيهم ومشورتهم . فسلكوا معه مسالك الصدق والوفاء وسهّلوا السبيل الى التفاهم بينه وبين المسيحيين .

فلمّا هوى نجم آل شعيب وسقط عزّهم وصار الحكم من ايديهم الى آل سيفا الذين حالفوا عليهم بني عساف فحملوا عليهم حملات شديدة فشتتوا شملهم واستولوا على بلادهم ، قام العسافيون على السيفيين ينازعونهم السيطرة على البلاد استقلالاً بالحكم وحالف الظفر رايات الامير منصور فاستولى على الاقاليم الشمالية الى اللاذقية ثم انقلبت عليه حكومة الاستانة فولّت عدوّه سيفا على طرابلس وألقت اليه مهمة الاشراف على بلاد النصيرية الى تخوم انطاكية عام ١٥٧٢ فاستفحل النزاع بين الاسرتين الحاكمتين واشتدّ بينهما القتال وكُبِدت البلاد من جرَّاء ذلك رزايا تسحق العظام . وما زال السيفيّون يتقدمون والعسافيون يتقهقرون حتى تولى هؤلاء العجز وضربت عليهم المذلّة وتفتحت لابتلاعهم اشداق الفناء . وخلا الجو لآل سيفا وقبضوا ازمّة الحكم بلا منازع من نهر الكلب الى نواحي انطاكية . غير ان الموارنة لبثوا مستقلين عن حكم السيفيين يتولّى شؤونهم حكّام منهم يختارونهم هم انفسهم ويلقبونهم

١) كان الحكام في ذلك العصر اذا ارادوا تشريف احد بلقب شيخ يكتبون له « الاخ العزيز » فيصير شيخاً بقوة هذه الكتابة .

بالمقدمين لتقدمهم في الرتبة والمقام . وكان المقدمون يجمعون الاموال الاميرية من الشعب المنوط بهم ويفرغونها في كيس جابٍ تركي فتُحمل الى خزانة الدولة عن يد حاكم طرابلس .

فالى هذه الحوادث التي انتهت باستيلاء السيفيين على جبيل وطرابلس وما يليها الى الشمال اشار المدبر ناصر بالكلام الذي قاله ليوسف باشا سيده .

فلمَّا جاهر يوسف سيفا بطموح نفسه الى لبنان الجنوبي استكبر ذلك عليه وخشي ان يواجهه بما في نفسه فيجرح تصلفه فقال :

— ما اتمنى لسيدي الا ان تلين له اعطاف الامور ويكون مطلبه داني المنال ويصير امامي الى الحال التي يصحُّ له معها القول : أعرض لك الصيد فارمه . فقال الباشا :

— ما دعوتك لتسعدني بالتمني والدعاء بل بالمشورة الصالحة والرأي الاصيل . قال :

— ان المشير الصادق الضمير من أبعد عن مظانّ الندم وانأى عن مواقف اللوم فسبيلي وانت مخلدٌ اليَّ بثقتك ألّا أدلس عليك الرأي وازيّن لك المحال. فان شئت ان اتكلم بما في نفسي فعلت . قال :

— تكلم . فانك لمشير صدقٍ وهادٍ الى مناهج الرشد . قال :

— ان الامر الذي ترومه لا يفوت ذرعك مهما يكن عزيز المنال فانَّ لك من ماضي العزيمة وعلوّ الهمة ما تذلل به العقاب وتروّض الصعاب . غير ان الحرب مجلبة الخراب فلا يحسن اضرامها إلا عن اضطرار . وقد سئمها رجالك ومالت نفوسهم الى الراحة . ويا طالما سمعتهم يرددون قول الشاعر العربي :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ

على ان الخصم الذي تروم قتاله وانتزاع السلطة من يديه ليس بالفَشِل الهيَّاب وانت قد عجمت عوده فأسفر امره عن رجلٍ جمع ثيابه على اسد وابن كريهة خوّاض غمرات . ألا اين قواتنا من قوات فخر الدين المعني وهو اذا صفر صفرةً تألَّب حوله خمسون الف مقاتل من السكبان[1] ومثلهم من رجال

---

١) السُّكبان ويقال السُّكبان بمعنى (حامي الكلب) قيل لهم ذلك لانهم يتقدمون الامراء في الصيد .

الاقاليم الخاضعة لامارته وكلهم ابطش من ليوث الغاب . وله المقام الارفع والكلمة النافذة في البلاد ومن ورائه المسيحيون ولا سيما الموارنة رجال قتال لا يدخل قلوبهم الرعب . ألا ترى كيف اكتسح الولايات واستولى على حوران وعجلون ونصب اعلامه على حصن نابلوس وبسط حكمه على شواطئ الاردن وابلغ فتحه الى اورشليم وضرب خيامه على ابواب دمشق ، وما اخاله الا مشرئبًا الى الاستانة نفسها . قال ابن سيفا :

لا يغرنّك يا ناصر لمعان ابن معن فان هو الا برقٌ خلّب وسراب يتوارى من امام وجهك كلما اقبلت اليه . لئن رفعته التقادير الى اعلى منازل السماء فلاسقطنّه الى اخفض ما وُطئ من الارض . اجل لقد حالفه الدهر وتعلّق براياته النصر ، بيد ان الدهر ابو الغير والغدر ، والايام يومٌ لك ويومٌ عليك . وان فلّ سيفي من قراع الكتائب فلي به رأيٌ لا يفلّ وعزمٌ لا يكلّ . وحيلة لا تنفد ومكيدة لا تضلّ . كيف اتخلّى له عن حكم البلاد وأنا أنا صاحب السيف الطويل والرأي الاصيل . قال :

الرأي يا مولاي قبل السيف . والتدبير اقرب الى الظفر من حشد الجيوش . ان خصمك لقويٌ وليس في البلاد قوةٌ تجرؤُ على مواجهته . فدع سيفك في غمده ورجالك في مراتع طمأنينتهم وحالف الامير ليأمن خروجك عليه . ويتقوّى ركونه اليك . فتثبت في الحكم قدمك وهذا حسبك الى ان تتغيّر الحال . قال :

اني وان كنت اميل الى القتال لا احب ان اخوض معمعةً وانا على شكٍّ من الظفر . والعاقل من اذا اقدم على امر نظر الى مخرجه قبل النظر الى مدخله . وان الباب العالي لن يصبر على تطاول المعنيّ واطماعه فما هي الا نفخةٌ انفخها في جذوة حقده عليه حتى تشبّ من الاستانة نارٌ تلفّ على المعنيّ واتباعه لهيب الفناء . لقد لمعت بوارق النجح . قال ناصر :

الرأي وجيه غير ان للباب العالي شاغلًا عن لبنان في هذه الايام من شؤون البلقان فليس يوجّه حملةً على الامير ما لم يقع في نفسه انه خارجٌ عليه ، وان خروجه عليه في هذه البلاد خطرٌ لا بد من دفعه . فينبغي ان تدخل الى هذا

الغرض من ابوابه وتستعين بوالي الشام على ادراكه ولا يأخذكما ونى في بث السعاية به حتى تفوزا . واذا تقربت الى الامير ودالسته دفعاً للشبهة عنك وحملًا له على الاخلاد بالثقة اليك فذلك افضل فانه اذا استراب بك فقد يفسد سعيك عليك .

فاطرق يوسف برهةً ثم ضرب جبينه بكفه وقال : سالتمس بغيتي من مظانّها واركب فيها كل صعبٍ وذلول . ولا بد قبل الشروع من التجهز للامر بجهازه لانه قد قيل : دَمّث لجنبك قبل النوم مضطجعاً ، وسأجمع اقطاب البلاد واشاورهم في ما عزمت عليه . قال :

لا طاش سهمك ، ولا أفل جدُّك .

٢

الاميرة هيفا

فتاة في سنّ العشرين فتّانة المحاسن ، هيفاء القوام ، بيضاء الوجه ، سوداء الشعر ، كأنَّ محيّاها البدر طالعاً من غلاف الظلام . تمشّت برهة في قاعة كبيرة في دار ابيها يوسف باشا سيفا التي في طرابلس قاعدة حكومة الاقاليم الشمالية من لبنان وعلى جسمها الناعم ثوبٌ طويل من نسيج القلاووس تسحب ذيوله على الطنافس العجمية وتسمع له خشخشةً كأنما هو من ورق صقيل . وكان في قلبها خاطرٌ مزعج تعالج إقصاءه ولا تستطيع ، وتجاه عقلها عقدة عاصية تحاول حلها فلا تنحلّ . وطال ذلك عليها حتى احرج صدرها وكسر من نشاطها . فجلست على مقعد من حرير احمر والقت وردة خدها على اصابع من عاج واطرقت تلعب بقلبها الافكار . وانها لكذلك اذ دخلت عليها فتاةٌ حسناء كأنها هي دمية من دمى القصور . وقعت عليها وقبلتها وقالت : هيفاء ! حبيبتي ما بالك مشغولة القلب منقبضة الصدر . بروحي انت مِمَّ تشكين ؟

١) مبنى هذا الفصل الحقيقة التاريخية وهي ان الامير فخر الدين كان متزوجاً بابنة من آل سيفا قيل هي بنت يوسف باشا سيفا . وقيل بنت عليّ اخيه والقول الاول اقرب الى التقليد الوطني . وكان حسين بن يوسف باشا سيفا متزوجاً بنت فخر الدين المعني .

— اواقدر ان ابوح بما في صدري لانسان ؟

— ما عهدتك تستوحشين من ناحيتي وانا اكتم لسرك من نفسك .

— اذا اطلعتك على امري فهل تعدين بدفنه في حفرة الكتمان ؟

— ان استطعتُ ان اكتمه حتى على نفسي فعلت .

— كأني بابي قد وطّن النفس على تزويجي .

— سنة الله في عباده . أمكان ان تُدرّي تلتعجين ؟

— اتدرين بمن ؟

— نعم وقد اتيت لاشاطرك المسرّة والهناء .

— هيهات المسرة وهيهات الهناء !

— عجباً ! من أليق بابنة يوسف باشا سيفا من محمد بن حسين باشا جبلاط[1] . ماذا يعيبك عنه وهو اذا صحّت شهرته فتى محمود الشمائل شريف المساعي كريم النسب رفيع المنصب كبير الثروة مرهف الذهن واقر الجنان . فضلاً عمّا يزينه من ملاحة الصورة ونضارة الشباب .

لست انكره من سوء وانما القلب لمن يهوى .

— اويعلم ابوك انك لا تميلين الى محمد ويحب ان يعقد لك عليه ؟

— لقد عرض عليَّ عشرات الطلاب من امراء البلاد واعيانها فرفضتهم وهو لا يلحّ عليَّ فلماً أنس مني عدم الرضى بمحمد اربدّ وجهه والحف عليَّ في القبول . وقال : ان الجبلاطيين قومٌ بنو عزّ وجاه له بمصاهرتهم فوائد جليلة . وقد ازوج كبيرهم علي باشا اختي زمرّدة[2] واتخذ ياقوتة اخت علي زوجة لاخي حسين .

---

1) حسين باشا جبلاط كان والي كلّس وهو عمّ علي باشا جبلاط الذي كان والي حلب وما يجاورها.

2) ان علي باشا الجبلاطي والي حلب كان ليثَ عرينةٍ وخواض غمراتٍ تطمح نفسه الى الاستقلال . وكان ان الدولة عام ١٦٠٣ وما يليها شغلت بثورة الانكشارية (الانكشارية اي العسكر الجديد . انشئوا في القرن الرابع عشر فاقلقوا الدولة بشكاستهم وثوراتهم وما زالوا حتى نُكبوا عام ١٨٢٦) فجعل يزرع الفتن ويثير القلاقل في ايالتي حلب والشام . وكان الامير فخر الدين قد استولى عام ١٦٠٣ على بلاد صفد وما اليها وامتدّ نفوذه وتسيطره على عجلون وحوران بالصولة والمحالفات فتحوّل الى الشمال

— ان اباك لاوسع حكمة وابعد نظرًا فالنزول على ما يريده الصواب .

— انا اطوع لابي من بنانه واتبع له من ظله غير ان الزواج اساسه المحبة فما شأن السياسة فيه ؟ على انَّ المحبة لا تُغتصَب فان ازوجني بمن لا احبُّ فقد غمس حياتي في الشقاء .

— المحبة بنت المعرفة والمعاشرة فمتى عرفت محمدًا وعاشرته وقعت محبته في قلبك .

— لسلخ الجلد عن البدن اهون من سلخ قلب المحبوب عن المحبوب .

وتقرَّب من علي باشا الجمبلاطي الذي كان مناوئًا ليوسف باشا السيفي حاكم طرابلس. وكان بين هذا وبين الامير المعنيّ منازعة على الحكم ووقائع وثارات فاشتبك بينهما القتال في جونية وانتهى بتغلب المعني وانهزام السيفي فولّى المعني الشيخ ابا نادر الخازن حكم كسروان والشيخ يوسف المساني حكم غزير وكلاهما من اعوانهِ عام ١٦٠٥ وكان في دمشقَ حافظ من قبل الدولة يُدعى احمد باشا وهو المعروف بالحافظ رجلٌ متغطرسٌ حمِسٌ فتّاك مطبوع على الشدة والظلم اغرتهُ النفسُ الامّارةُ بمحاربة الامير يونس الحرفوشي حاكم بعلبك والامير احمد الشهابيّ حاكم وادي التيم فاستنجدا بالامير فخر الدين فأنجدهما متصديًا للحافظ فوقعت بينهما عداوةٌ شديدة وجعل الحافظ لا يجد بابًا الى نكاية المعني إلّا دَخَلَهُ ولا سبيلًا الى السعاية به إلّا سلكهُ . فامسى الامير بين عدوّين يوسف باشا سيفا وحافظ دمشق فانحاز الى علي باشا جنبلاط عدوّ الاثنين فوشى به السيفيُّ الى السلطان والتمس الى ان يُسند اليه قيادة عسكر الشام لينكّل بالجمبلاطي فأُنيل الملتمس وامّل انهُ سيفتُّ في عضد المعني مفرّقًا عنهُ اعوانَهُ ومرهقًا مناصريهِ . فحشد جيشًا عرمرمًا في ارض حماة وانضمَّ اليهِ انكشارية دمشق بقيادة احمد باشا الطواشي فاستظهر الجمبلاطي عليهم ومزّق صفوفهم وفرَّ ابن سيفا الى طرابلس فنفّره منها الامير المعنيُّ فارسل اسرتهُ الى دمشق وابحر الى اللجون في فلسطين فاجارهُ اميرها احمد بن طرباي واوصلهُ بطريق حوران الى دمشق .

وكان الحج كيوان نسمه ضو الديراني الماروني مُدبّر الامير المعني فاستحثَّهُ لتعضيد علي باشا جمبلاط في محاصرة يوسف باشا سيفا في دمشق فجهّز جحفلًا جرارًا من السكبان ومن رجالهِ المسيحيين والدروز والمسلمين واجتمع بالجنبلاطي عند منبع نهر العاصي قرب الهرمل فارسلا درويش بن حبيب جنبلاط شقيق حسين باشا الى طرابلس فضبطها واطلق فيها ايدي النهب إلّا قلعتها التي تحصّن فيها يوسف مملوك السيفي فاستعصت عليهِ . وزحف المعنيّ والجنبلاطيُّ بجيوشهما على دمشق وخيّما في البقاع واطلقا عسكرًا على بعلبك فنهبوها.

وجمع السيفيُّ عشرة آلاف مقاتل في وادي بردى وسار بهم الى ارض مرّاد بنواحي حماه حيث التقى بجيش عدوّيهِ المتحالفين واستمال الحج كيوان زعماء الجند الشامي الى سيّده واغراهم بالفرار عند اشتباك القتال . فلما اصطدم الفريقان تمزّق شمل الجند الشامي

— انما سمي القلب قلباً لتقلبه . فكم محبة جديدة تمحو القديمة .

— اذا وقع مثل هذا فلغيري . أمّا انا فليس يصحّ عليّ غير قول الشاعر : ان المحبة للحبيب الاول .

— ان كان لك نصيبٌ تؤثرينه وهو صالح فما اظنّ اباك يقيم حائلًا دون ذلك النصيب .

— أو أجوز ان اذكره لابي وهو يعدُّه عدوًّا لدودًا ؟

— يا للغرابة ! اتقع المحبة بينك وبين عدوٍّ لابيك !

— متى صرت زوجةً له تنقلب العداوة الى صداقة ويصبح العدوّ حليفًا لابي وابنًا أبرّ .

— من هذا الذي تؤثرينه على الامير الجنبلاطي ؟

— هو خلاصة الكرم ، ومُلحة الظرف ، ومعدن المروءة ، وقلب الاسد . هو الذي : الخيل والليل والبيداء تعرفه والسيف والرمح والقرطاس والقلم . هو عين هذا الزمان الذي سارت بذكره الركبان واشاد بصيته الرواة .

— ما أراك تعنين بهذه الاوصاف الشائقة غير الامير فخر الدين المعني . أإياه تعنين ؟

وصُرع منهم كثيرون وأُسر كثيرون . وتأثر الجنبلاطي والمعني فلولِ الكتائب الشامية فخيّما في قرية المزّة ودخل محمد باشا الطواشي المدينة بالفارّين وحصّن ابوابها واراد السيفيُّ الخروج بجماعتهِ فتصدّى لهُ قاضي قضاة الشام المولى ابراهيم بن علي الازنيقي وحسن باشا الدفتري واعيان المدينة ومنعوه من الخروج ما لم يدفع اليهم فدية المدينة فنقد القاضي مئة الف قرش فاطلق وفرّ الى حصن الاكراد .

واغضب الجنبلاطي اطلاق الشاميين للسيفي فصاح بالسكبانية وسائر رجال المعني فاندفعوا ينهبون خارج المدينة ويفتكون وهاجموا محلّة القبيّات والميدان وسويقة المحروقة وسوق ساروجا ومحلة السودان والصالحية مدة ثلاثة ايام . ثمّ طلب الجنبلاطيُّ غرامةً فأدوهُ مئة وخمسة وعشرين الف قرش وطلب المعنيُّ ولاية البقاع وبعلبك للامير يوسف الحرفوشي فكان لهُ ذلك . وزحف الجنبلاطيُّ على حصن الاكراد فضيق عليهِ الحصار فاسترضاهُ يوسف باشا سيفا بثلاث كرات من القروش وأزوجهُ بنتهُ زُمُرّدة واتخذ اخت الجنبلاطي زوجةً لابنهِ الامير حُسين وخمدت بينهما جذوة العداء وكرَّ الجنبلاطيُّ راجعاً الى حلب . وعاد المعنيُّ الى الشوف يُحرقُ الارم لنجاة عدوّهِ وتمزّز جانبه بمصاهرة الجنبلاطي .

قالت : اياهُ . قال : يا لهُ نصيباً تحسدين عليه . الك في قلبهِ مثلُ ما في قلبكِ ! قالت : ذلك وزيادة . قال :

— لا اسألكِ عن مبدأ المحبة بينكما مع ما بينهُ وبين ابيكِ من الزحام على الحكم لاني واقفة على ما ازدرع عندكِ من المعروف . قالت :

— كان ينبغي على آل سيفا ان لا يجحدوا نعمتهُ ويخفروا ذمتهُ غير ان مطامع السياسة أبت الأ الجنوح براكبيها عن جادّة الوفاء . قالت :

— لقد كنتِ في حوزة الامير فكيف اطلقكِ ولكِ الحظوة عندهُ ? قالت :

— ان الامير أرفع خلقاً واعزّ نفساً من ان يأخذ له زوجة على غير المألوف من رضا مَن لهُ الحق ان يزفّها اليهِ . ولو سامني مثل هذه الخطة لامتنعتُ .

— الم يُضطرّ ابوكِ لاسترضائهِ بكِ يوم القلعة كما استرضى الجنبلاطي بشقيقتكِ ?

— تعزّز موقف ابي برضا الجنبلاطي ومصاهرته فلو شدَّد المعنيُّ يومئذٍ على ابي في امري لما استطاع اكراههُ وقد صار الجنبلاطيُّ في جانبهِ . وضعيفان يغلبان قوياً .

— لقد كنتِ في حوزتهِ ولم يضبطكِ وعدتِ الى بيت ابيكِ ولم يخطبكِ ، ونفسهُ ارفع من ان يأخذكِ إلّا برضا ابيكِ وابوكِ لن يعرضكِ عليه . فكيف تؤمّلين اقتراناً بهذا الذي تحبّين !

— ألم يبلغكِ ان الامير المعنيّ قد أوفد الى ابي وفداً من اعيان الشوف برئاسة مدبرهِ ابي نادر الخازني . فاكرم ابي وفادتهم وتقبّل هداياهم ولمّا وقف على قصدهم قال للشيخ ابي نادر : انَّ لي بمصاهرة الامير لفخراً غير اني اكره ان يصير لي ابناً وتكون بيننا المنازعة على الحكم . وانت تعلم ان السيفيين والمعنيين متشاقون في طريقة الحكم فهم يترعون الى الاستقلال عن حكومة السلطان ونحن لهذه الحكومة موالون وعلى بسطة سلطتها في البلاد عاملون . وانَّ نفس الامير طامحةٌ الى توحيد الامارة وحصرها في قبضتهِ وقد شنَّ الغارة على بلادي وحاول انتزاع السلطة من يدي ولولا حؤول الحدثان دون بغيتهِ لكنتُ اليوم من عمَّالهِ او لكنتُ مقتلعاً من ارض الاحياء ، فاذا عاهدني على

السلم وأقسم لي انهُ لا يتصدّى لاقاليم الشمال فانا مصاهرهُ ومحالفهُ ومناصرهُ إلّا في ما اذا سوّلت لهُ النفس الخروج على الباب العالي فلي موقف الحياد ما استطعت الى ذلك سبيلا . فاستعظم الشيخُ هذا المهرَ وقال : نحمل الجواب الى الامير . وحملهم ابي اليه من انفس ما لديهِ وشيّعهم مكرَّمين .

ولمّا اطلع الامير على شرط ابي استغلظهُ ووقع في حيرةٍ من امرهِ ووجد نفسهُ بين عاملين متضادين إن رفض الشرط فقد طعن قلبهُ ومحبوبتهُ طعنةً لا تندمل على العمر . وان رضيهُ فقد نكث العهد الذي قطعهُ للبنان انهُ لا يغمد حسامهُ حتى ينيلهُ استقلالهُ ويضرب كلَّ رقبةٍ مشرئبةٍ اليهِ . ولبث برهةً يتردد بين الخطتين ولا يجرؤُ على التضحية باحدى المحبتين . هيفاء والوطن . كلاهما جميلٌ وكلاهما عزيزٌ وكلاهما معشوق . لكنهما لا يجتمعان . هما بمثابة العينين فأيهما يقتلع ؟ تهادتهُ الغموم وتنازعتهُ الهموم . وحرج صدرهُ وتبيّن الكمد في وجههِ . فأطلَّ رأسهُ من نافذة القاعة وتنفّس الصعداء وتنشّق شمّةً من الهواء . وسرّح نظرهُ في الفضاء . ومدَّ يمناهُ وجعل يُسراهُ على صدرهِ وقال : أي لبنان المحبوب ! لله عليَّ ان لا احبَّ عليك بشرًا ولا شيئًا . ولا ادّخر في سبيل استقلالك تعبًا ولا راحةً . انتَ بعد الله معبودي الكريم . انتَ انتَ قبل الوالدين والاخوة والزوج والمال والنعيم . ان نسيتكَ فلتنسني يميني . وان عشتُ لغيرك فلا عشتُ وان لم أعلِ مجدك فليلتصق وجهي بالتراب . وان أضعتُ ذمّتك فليضعني بنوك ويطأني اعداؤك ، ولا يذكر اسمي في سجلّ ابطالك وحماة ذمارك وليوث ارزك العظيم .

وانت يا هيفاء لا يرعكِ صدُّ ابيكِ فستصيرين ربّة بيت المعني وجنّتهُ الحيّة ورفيقة حياتهِ ولبوة اشبالهِ شاء ابن سيفا أو أبى . ولم يعد يطلبني الى أبي . وما برحت رسائلهُ تردني متتالية منذ ذلك اليوم وكأنهُ يفرغ فيها خفة روحهِ ورقة حواشي طبعهِ وشريف عواطفهِ ولطيف فكاهتهِ فاقرأ فيها قلبهُ الطافح حبًا ويخيّل لي انهُ قد خطَّ سطورها بمداد مهجتهِ . ولولا تلك الرسائل لأسلمني الجَلَد وسئمتُ الحياة وصرتُ الى اليأس المخيف ولكن هي الامال تخفف الآلام .

أعلّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الاملِ

ورفعت بنتُ ناصر نظرها اليها فاذا على وردتي خديها لؤلؤتان من الدمع فرثت لها واغرورقت عيناها بالدموع وقالت : طيبي نفساً يا سيدتي واعتمدي عليَّ فسأطلع أمي على امرك وهي تحضُّ أبي ليصرفَ أباكِ عن عزمه . وابوك لا يصدر حكماً إلّا عن رأي مدبّرهِ ولا يقطع امرًا دونه . فيزيّن لهُ مصاهرة الامير المعنيّ ويصرفهُ عن مصاهرة الجنبلاطي . فتذرعي بالصبر وتوقعي قربَ الفرَج .

فمسحت هيفاء على عينيها بمنديلٍ من حريرٍ ابيض مزركش الاطراف بخيوطٍ ذهبية اللون . وبلعتِ ريقها وتنفَّست وقالت : شكرًا لكِ يا عزيزتي طيّبة . غير اني اكرهُ ان تبوحي لاحدٍ بما علمتهِ من صبابتي وجواي .

— كلي الامرَ الى فطنتي ، واعلمي انَّ مدبّر ابن سيفا أوسعُ حكمة واكرمُ شيمةً من ان يقول او يفعل ما يحطُّ من شأنكِ ويسوق اليكِ الملام .

٣

على نهر الجي علي

كان بنو شعيب مسيطرين على الاقاليم الشمالية اللبنانية في ما وراء طرابلس وقاعدتهم عرقا . وكانت بينهم وبين آل سيفا عداوة شديدة منشأها التنازع على الحكم والمزاحمة على ولاية طرابلس . وسياسة الباب العالي الدائرة على التقسيم في العمال والرعية ايماناً لهم بالتفرق حتى لا يتيسر لهم الخروج على الدولة . فوقع بين الاسرتين معارك دموية في اوقات مختلفة واشتدت حملات الشعيبيين على السيفيين سنة ١٥٢٨ وكادوا يسحقونهم . فاستنجد السيفيون بالامير فخر الدين الاول وقد فزعوا من عكّار الى الباروك ، فأنجدهم الامير المعني بتوسط الامير منصور العسّافي والي كسروان وجبيل وسيّر معهم الى عكّار ثلاثمئة مقاتل من اشد رجاله بأساً انضموا الى رجال الامير منصور واطبقوا مع السيفيين على آل شعيب ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، وتولّى السيفيون حكمهم . ثم سعى الامير منصور بقتل زعيمهم محمد آغا الشعيبي فقُتلَ هو وابنهُ حمدان ، فاستتبَّ حكمُ طرابلس للسيفيين وتشتّتَ بنو شُعيبٍ في انحاء البلاد وفرَّ جماعة

منهم الى حوران وفي صدورهم حزازات . فلمّا استقرّ بهم المكانُ عقدوا القلب على الثأر من اعدائهم بما تصل اليهِ أذرعهم وباتوا يتحيَّنون الفُرص .
وكان بعد زمان ان اربعة من رجالهم هبطوا الى طرابلس متنكرين ومعهم امرأتان دجَّالتان تدَّعيانِ علمَ البختِ واقامَ جميعهم في المدينة يرقبون سنوحَ الفرصة للانتقام بقتلٍ او سلبٍ او إحراقٍ فلم يتيسَّر لهم شيء من ذلك .
وكان انَّ نساءَ يوسف باشا سيفا خرجنَ ذات يومٍ الى بستانٍ على نهر ابي علي لترويح القلب وتنشُّق الهواء النقي ، وعند منتصف النهار مُدَّت لهنَّ مائدة في ظل شجراتٍ فجلسنَ حولها على بساط العشب الاخضر في الفيء ، يأكلنَ ويشربن مسرورات طربات . وبينا هنَّ كذلك اذا بدويَّتان وقفتا عليهنَّ وغنتا لهنَّ اصواتاً مُطربة على نقر الدفّ ، ورقصتا امامهنَّ رقصاً حسنَ في عيونهنَّ . فقدَّمنَ لهما طعاماً فلما استوفتا قالت احداهما للاميرات : مَن مِن سيداتي تحبُّ ان اكشف لها عن بختها فاني بارعةٌ في علم الابراج ولي معرفةٌ واسعة بالمجهولات والخفيَّات ، وما عليَّ إلَّا ان احدّق في خطوط الجباه والاكفِ ، فأرى الخطوط بارزةً من ظلمة الخفاء باسطعِ اشعةِ الجلاء ، فاقبل كلُّهنَّ عليها وقلنَ بصوتٍ واحد : أنا ، وعَرضنَ لها اكفهنَّ ، فتحيرت في ايِّهن تبدأ . وقالت : ما لكنَّ والزحام انَّ لي في اكتشاف البختِ مزيَّةً لا يملك مثلها غيري من مبرّجين ومبرّجات . ها انا أبرّجُ لكلكنَّ دفعة واحدة واجعل كلَّ سيدةٍ منكنَّ تعرف بختها وبخت رفيقاتها في اسرع من ردّ الطرف . في آنٍ واحدٍ يرتسم في اذهانكنَّ الماضي والحاضرُ والمستقبلُ من كل ما وقع وسوف يقع لكنَّ . وشرطي عليكنَّ ان تطاوعنني في ما أُوعزُ بهِ اليكنَّ .
وما زالت بهنَّ حتى حملتهنَّ على شيءٍ من الثقة والتصديق وحصلت لهنَّ رغبةٌ في اختبار علمها الفريد ، فقلنَ لها : نفعلُ ما تُحبين . قالت : اذن ، أعصب على عيونكنَّ وأحرق بخورًا مقدساً في نار أوقدها بيدي ، وانتنَّ تتنشَّقنَ من دخان ذلك البخور وانا اتلو آياتٍ روحانية لا تفهمنها ولا مثلها سمعتنَّ . فاذا انتهيتُ من تلاوتي تعرفن من تلقاء انفسكنَّ غوامض عجيبةً واسرارًا قاصيةَ الغور كانت مكتومة عن علمكنَّ . وتعلمنَ ايضاً كلَّ سعيٍ لكنَّ او

عليكنّ، وكلّ ما تخبئهُ الايام لكنّ وكلّ عاطفة تختلج في صدور بعولكنّ. وكانت تتكلّم بصوتٍ رخيم ولفظ انيق ولسانٍ طليق. حتى خلبتهنّ وسحرتهنّ فقلنَ لها : افعلي ما شئتِ .

فشدَّت عصائبَ على اعينهنّ واحرقت سحيقاً على نارٍ أوقدتها ونشّقتهنّ وهي تدمدمُ وتُتمتمُ وتُهمهمُ وتذكر أسماء غريبة وتستدعي ملائكة وشياطين. فما هي الا بضع دقائق حتى انقلبَ كلُّهنّ وفارقهنّ الوعيُ ولم يبقَ عندهنّ من مظاهر الحياة إلّا النفَسُ في أنوفهنّ. حينئذٍ طلع من وراء السياج اربعة فرسانٍ مدجَّجين بالسلاح وقعوا عليهنّ وسلبوا كلّ ما كان عليهنّ من زينةٍ غالية وحليٍ نفيس . وافرغوا على هيفاء لباس بدويّة ، وحملها احدهم على ظهر جوادهِ من ورائه ، وتوارى الاربعةُ الفرسان والبدويّتانِ .

٤

في حوران

لبثت هيفاء تحت سيطرة المخدّر ترى الاحلام المزعجة وتتالى على مخيلتها الاشباح المرعبة حتى انتهى بها السايون الى سهول بعلبكّ ففتحت عينيها فاذا هي على فرسٍ وراء بدويٍ فارتجزت رعباً وقالت : اين انا ؟ وظنَّت انها حالمةٌ ففركت عينيها وجسّت جسمها فسقط ظنُّها وايقنت انها مستيقظة والتفتت الى ما حولها فوقع نظرها على ثلاثة خيالةٍ مدججين بالسلاح احدهم امامها والاخران وراءها فارتاعت. وشاهدت ارضاً غريبةً ومشاهد لم تقع عينها عليها قط . فاستوقفت البدويّ الذي يحملها على فرسهِ فلم يقف. فحاولت ان تلقي بنفسها الى الارض فاذا هي مشدودة الى ظهر الرجل برداء معقودٍ الى صدره فاستصرخت وما من مجيبٍ والجواد يطوي بها السهل كما يطوي العقاب فسحات الفضا . واحسَّت بحرارة قاسية وعطش مذيب . فمن اين الماء ترطبُ بهِ لسانها إلّا ما يسيل من وجهها ومقلتيها من عَرَق الخوف البارد ودمع الاغتمام السخين. وما زالت على هذه الحال حتى اسبل الليل ستار الظلام وحلّ التعب بالخيل وضايقها الجوعُ والظمأُ ولم يعد يقوى على اثارة نشاطها وخز المهاميز ولا ضرب

السياط . فترجَّل الفرسان في مضيق بين جبلين ومشوا الهوينا بخيلهم وهيفاء في الوسط كمجرمة يخفرها الجندُ حتى انتهوا الى خان ميسلون في وادي القرن فحطوا رحالهم على مسيرة بضعة اميالٍ منهُ واتوا بالماء. والطعام والعلف فاكلوا إلَّا هيفا. كرعت جرعةً من الماء. فقط فحاولوا تسكين روعها وتملقوها بالكلام الحسن والملاطفة لتأكل وتسند قلبها فامتنعت وكانت بينهم تتجز كالارنب احدقت به كلابُ الصيد فاشعلوا غلايينهم وجلسوا يتحدثون الى منتصف الليل. ثم وثبوا على ظهور الخيل كشواهين على نسور وأردفوا هيفاء وراء احدهم وما زالوا يجدُّون في السير وينهبون الارض حتى اقبلوا على دمشق فمالوا عنها جنوباً في طريقٍ غير مطروقة انتهت بهم الى حوران. فنزلوا عند خيامٍ مضروبة وخرج للقائهم رهطٌ من سكانها وفيهم رجلٌ طويل القامة مرسل اللحية قليل اللحم اسود العينين تحيط بسوادهما حمرةٌ فاتَ عِقدهُ الخمسين يدعى الامير اسماعيل شعيب والى جانبه ابنه الامير عزام وهو شابٌّ ظريف الهيئة معتدل الاعضاء شديد الاوصال يناهز سنَّ الخامسة والعشرين. فرحَّبا بالقادمين واثنيا عليهم واطنبا في مدح جرأتهم ودهائهم. واخذ اسماعيل الفتاة من يدها وادخلها الى بيته وعلى وجهها صفرة الموت كمن تُدخل حيَّةً الى الرمس . ثم نادى بزوجته اسمآء وقال : اليك هذه الاسيرة تكون معك في خبائك مصونةً ومكرَّمةً الى ان ننظر في امرها. وحدَّق عزَّام في وجه الصبيَّة على نور مصباح فأعجبه شكلها ووقعت من قلبه وآلمه ما بها من غمَّةٍ وانكسار . وقال في نفسه : ما ذنب هذه المخلوقة الجميلة كروضةٍ ، النقيَّة كزنبقة ، ما ذنبها فتُقصى عن وطنها وتُنزع عن ثدي لذَّات بيتها . متى حملت علينا سلاحاً ، او لنا حقدًا فنثأرُ منها لانفسنا بالسبي والجلاء ! لعلَّ الله أرسلها اليَّ لامرٍ به صلاح ! لاجل ان اتخذها زوجة لي فتكون سبباً للتقرب بين الشُّعيبين والسيفين ، فتزول العداوة من بيننا ونعود الى أرضنا واملاكنا آمنين . وتربةِ اجدادي لأطيِّبنَّ نفسها واجعلها سيِّدة هذا البيت . واميرة آل شُعيب . فان فارقها ~~استيحاشُها واحبَّت~~ الدخول في أسرتنا وإلَّا ردَدتُها الى بيت ابيها فتكون لمن تهوى . فتعلم ويعلم الناس كلُّهم ان بني شعيب اكرم شيمةً من ان يأخذوا

فتاة بجريرة اجدادها او يحذفوا بحجارة الأذى مَن لم يُثِر على ثيابهم غبار اذاه .

اثاب اسماعيل رجاله الاربعة بعطايا مرضية وصرفهم الى خيامهم واوصاهم بكتم السر . ولمّا افترّ ثغر الصباح دخل اسماعيل خباء الحريم وقال لهيفاء : ما اتينا بك الى هذا البلد البعيد لشرٍّ نوقعه بكِ او نزيدك عليه . بل نكاية الكبراء أسرتك الذين فتكوا برجالنا وشتتوا نساءنا ويتّموا اطفالنا وضبطوا املاكنا وانتزعوا الحكم من ايدينا وانزلونا عن ذروة عزّنا ، فستمكثين عندنا اسيرةً لكن لا عبدةً وستكونين اجنبية لكن لا مسومةً هواناً ، ولن يطلقك من هذا الاسر إلا أحدُ حادثين او كلاهما : موت ابيك او رجوعنا الى ما كان لنا من عزٍّ وثروةٍ وجاه .

فحدّقت فيه بعينيها الواسعتين وقالت : أمكث عندك مكرهةً واصبر على مضض الغربة والاسر حتى يفتح الله باب الفرج . وما دام نَفَسي في أنفي فلن يأخذني سلوٌّ عن اهلي والوطن . ولأن اكون اجنبيةً في بيتك احبُّ اليَّ ، ومـا اقدر إلا ان اكونه وانتَ عدوُّ ابي وجدّي وآسري لا ببطشك وقوّة ذراعك ولا بذريعة عادلة وشريفة بل بأخسّ الوسائل والحِيَل . ولا اسألك مراعاة واحساناً الّا ان تحبس عليَّ في موضع خلوة حيث اجعل النغم جليسي والدمع انيسي ولا يكون لي تسلية إلّا الأنـين والهديل . قال إن احببتِ العزلة على الإقامة معنا فذلك اليكِ . اليومَ تُنصب لكِ خيمة ويُقام لحراستكِ امرأتان . قالت أسماء : أسألك ياسيدي ألّا تفعل فان الصبيّة مستوحشة ، كِلْ امرها اليَّ فانا أؤانسها حتى تركن بنا فان استعصى نفورها فهي الجانية على نفسها ، ومَن لا يرحم نفسه فمَن يرحمه . قال : افعلي . وخرج .

فطفقت أسماء تلاطفها وتهوّن عليها وتؤمّلها بقرب الفرج فما يزيدها ذلك إلّا اغتماماً . لم تستطع ان تلوي عزمهـا عن الاعتزال . واقبلت عليها وطفاء بنتُ اسماعيل وقالت بصوتٍ متملّقٍ رخيم : لا تبكي يا أُخيَّة ، فانا وأمي وسائر هؤلاء النسوة نحبُّكِ ولا نعدّكِ غريبةً بل كواحدةٍ منا تعيشين معنا ولا نفرقكِ عن أنفسنا ، وأدنت فمها من أذنها وهمست هذا الكلام : ستصيرين اختي وابنةً لأبي وسيّدة هذا البيت ، وبكِ تُنقض العداوة القائمة بين أسرتنا

واسرتكِ فطيبي نفساً وقرّي عيناً . ووقعت عليها وقبّلتها ووعدتها بان تجعلها معها في خيمةٍ تُنصب لها وحدهما . وما زالت بهـا حتى سُرّيَ عن قلبها وسكنت اليها .

وفي صباح الغد ضُربت خيمة من شعر على بُعد خمسين خطوة من خيمة اسماعيل وسُمّيت خيمة وطفا ، أوت اليها الفتاتان وطفا وهيفا . وكان بينهما التماثل اخلاقاً وسنّاً فامتزجت روحهما اي امتزاج واستحكمت بينهما الصداقة وتوثقت رُبط الاخا . اعتصمت هيفا بالتصوّن فلم تكن ترفع نظرهـا الى رجل ولا تأذن للسانهـا بتحديث رجل إلّا اذا اضطرت لمجاوبة اسماعيل . فوقعت هيبتها على كل اسرة شعيب واحبّوها على ما بهم من المقت لآل سيفا وانزلوها من انفسهم منزلة الاكرام .

غير ان ذلك كلّه لم يُنقص من شعورها بذلة الأسر ولا خفّف ما بقلبها من عذاب الفراق . فكانت احياناً تسند رأسها الى صدر صديقتها وطفا فتحرقه بالزفرات وتبلّه بالعبرات حتى تبكي وطفا لبكائها وتعالج تسليتها بكل ما عندها من فكاهة الاخلاق ورقّة الشمائل وتطامن الجانب وحلاوة اللسان وملاحة النكات ، فتجيبها هيفا : لا تعنّي النفس يا صديقة ، فانـه كيف يصفو للاسيرة عيش او يفارقها غمٌ وينقطع لها دمعٌ وهي كالطائر انتزع من العش وحبس عليه في قفص ؟ لقد عاهدت اذنيَّ ان لا تستلذا نغمةً ولو من نغمات السما ، حتى يقرعها صوت والديَّ واخوتي الذين في ظل محبتهم ربيتُ . وقلت لعينيَّ فقيتما ان استجلتما مشهداً حتى تعاينا تلك الوجوه المحبوبة وتقعا على مشاهد الوطن الرائعات . سقياً لكِ يا طير السما ، فانك في يسير من الحين تشقين الهوا ، وتطوين فلوات الفضا ، وتدومين فوق عكار وطرابلس البلدين البهيّين وتصفقين باجنحتك الخفيفة طرباً فوق قصور آل سيفا الشاهقة فوق حصون الجبابرة المنيعة . يا نسيم الصبا الا تحملنَّ سلامي الى ارباب تلك القصور والحصون . انه لطيف مثلك فليس يثقل عليك ايُّها النسيم . بالله يا ريح الجنوب اذا بلغت طرابلس وهززت اشجارها وتنشقت عرف رياحينها في بساتينها الناضرة وحدائقها الغنا ، ألا اخبرتِ حاكم طرابلس امير عكّار عن

حال بنته هيفاء . ونجت بما بقابها من لوعة الشوق وحرقة الفراق ، اين انتم يا ابطال سيفا يا اسود الوغى يا أباة الضيم يا حماة الحريم ! ...

وكان عزام يجيء احياناً فيجلس في باب الخيمة يحدث اخته ويحاول ان يسترق من هيفاء نظرة حب او كلمة تودد ومؤانسة فلا يفوز منها بمأرب . وعرفت اخته ان الفتاة آخذة بمجامع قلبه ، لانه كلما اتى الخيمة ينظر الى وجهها المليح وقدها الرشيق بعين تفضح اسرار محبته وتروي عن حديث مودته يلقي عليها الاسئلة المطولة بكلام رقيق الحواشي معجون بعسل اللطف فترد عليه بالفاظ موجزة تفرغها في قالب الرزانة ملحوفة بشيء من اليبوسة فيزله ذلك فيتنهد ويفرك يديه وتنقلب سحنته ويطرق برأسه صامتاً يفكر وعيناه جامدتان ، اخذ النحول ينال من جسمه وقلّ اكله ونومه وزهد في الضحك والفرح وكثير من التسليات . وكانت وطفاء تنظر الى ذلك القلق وتحب ان تخرج اخاها من تلك الحال ، لكنها تأبى العمل على رفع كربه قبل ان يكاشفها بما في نفسه من محبة هيفاء ، فلما يئست من بثه ما في صدره من تلقاء نفسه وهالها مصيره اذا لبث على تلك الحال ، جلست مقابله ذات يوم ومسّت بانامله العاجية اسفل ذقنه وقالت له : اراك أخا كلف بالصبيّة فهلّا تروم الاقتران بها فأطلعها على بغيتك ؟ فتبسم واجاب : لقد نمّ وجهي عن حديث فؤادي فما ينفع ان اكتم كلفي . اني لمولع ولهان فافعلي . فأوقفت صديقتها على حاله وافاضت في الكلام تزييناً وتشويقاً . فلما اشتد الحاحها احمرّت وجنتا هيفاء وقالت : عدّي يا عزيزة عن هذا الحديث فان كان لي محبة في قلب اخيك فليردّني اولا الى بيت أبي ثم اذا جبر كسري واطلقني من اسري فحينئذ يجوز له ان يخطبني بوسيلة الاحسان اليّ والى والديّ . أمّا ما دمت في ارض الغربة فحديث النعش والرمس احب اليّ من حديث الزواج والعرس .

— اذن انت لا تحبين عزاماً وهو اخي ؟

— احبه لانه اخو حبيبتي وان كان ابن عدوّي وعدوّ ابي . غير اني احبه كأخ لا كنصيب .

– لو شئتِ لاحببته كما يحبك ولآلت محبتك اياه الى سعادتك .

– لو ساغ للاسيرة ان ترتاح الى سعادة غير سعادة الرجوع الى وطنها لما رددت طلبته وخيبت املك وكلاكما عزيز عليَّ .

– لأبي ان يكرهك اذا اراد ، فأنت قيد سلطانه ولا مفلت لك من طاعته .

– لابيك يا وطفا. سلطان على حياتي لضعفي وقوته. أمّا على ارادتي فليس لاحدٍ من سلطان . فان غصبني على امري فقد اشقى ابنه وأشقاني وما اخاله يبتغي لابنه الشقاء .

– بعيشك يا هيفا. تحوّلي عن هذا العزم فاني مشفقةٌ عليك من سخط قومي اذا لم يلن جانبك . أيقني ان المحبة اذا قارنها اليأس انقلبت الى لددٍ وبغضاء.

– قلبي مستعدٌ لكل كارثة وبنت سيفا لا يطمعها تجاه الواجب وعدٌ ولا يرهبها وعيد . اغريبة واسيرة ومخطوفة واعاهد على زواج مَن ابوه عدوٌ لاسرتي وغادرٌ بي ومقطع اكباد والديَّ وعشيرتي حزناً عليَّ . ردّوني الى بيت ابي فاشاور قلبي الحرّ في الاجابة الى ما تسألون .

– لو كان الامر اليَّ او الى اخي لفعلنا ولكن ارادة اسماعيل اصلب من الحديد .

– وارادة بنت سيفا اصلب من الجلمود والماس .

– اذن تهيأي للشقاء .

– هيئوا حفرتي وادفنوني حيةً فذلك اشرف لي واهون عليَّ من خيانة قومي الذين سيعرفون كيف يثأرون لي .

فتغيرت سحنة وطفا. تجاه هذا العناد والقت على صديقتها نظرة اشفاق ورحمة ومسحت عن خدّيها سماطين من لؤلؤ الدمع وقالت : لا مفر من المكتوب !

ومنذ ذلك اليوم امسى الجميع ينظرون الى هيفا. شزرًا ويوسعونها هُجرًا ويكثرون لها عن ناب العداء. وامسى عيشها ضنكًا وصفوهــا كدرًا وجعل غمها يتكثر واكلها يقلّ وجافى مقلتيها الوسن واستولت عليها الهواجس وسيطر على جسمها الهزال .

(لها صلة)

اخبار العالم

اخبار دينية

الفاتكان : في ١٨ كانون الثاني حظي بمقابلة البابا بيوس الثاني عشر جلالة الملك طلال يصحبه ولي العهد الاردني وقد سُر قداسته بهذه الزيارة وأعرب لجلالته عن تمنياته الصحيحة للعائلة الملكية وأوصى برعاياه الكاثوليك وعبّر عن أمانيه باستتباب السلام في العالم بمعاضدة كل ذوي النية الصالحة . دامت المقابلة نحو عشرين دقيقة.

يوغسلافيا والكنيسة الكاثوليكية : رغماً عن إطلاق السيد ستاناك مطران ابرشية زغرب تحت شروط معلومة لم تزل حياة الكاثوليكيين في يوغوسلافيا صعبة أليمة . فالحريات الدينية لا تزال مقيدة هناك والسيد ستاناك لم يكن وحده سجيناً بل يوجد بعد في السجون السيد كول راعي كنيسة موستر ومئتان من الكهنة ثم إن نصف المعاهد الاكليريكية باقية بعد بيد الحكومة ولا يزال رهبان وراهبات عديدون مبددين بعد ان ضُبطت اديرتهم . امـا النشرات الكاثوليكية فقد اضمحلت فعلاً وقد أخضعت حرية البلاد لقوانين صارمة خانقة.

المسيحيون في مصر (عن وكالة فيداس بايجاز وتصرف) : قاسى المسيحيون كثيراً لما حدث لهم مؤخراً بفرصة الاضطرابات والفتن في مصر فقد رأوا انفسهم غرضة لاحقاد ما كانوا يتصورونها ولمطاردات شديدة واحياناً دامية من جهة مشاغبين متطرفين يقودهم تعصب ديني لا يرضاه منصف . هل يوجد بعد من يشك بوطنيتهم وقد شاركوا في المظاهرات واعلنوا عن اخلاصهم قولاً وفعلاً . ومَن يجهل بان الوطن المصري هو وطنهم بل ولهم فيه الاولية.

أتت الاخبار تباعاً عما جاهر به كثيرون من المتظاهرين من عدوان ضد المسيحيين ودس المكايد ضدهم والتعرض لكنائسهم في القاهرة وهيليوبولس ودمنهور ثم هدم الكنيسة القبطية في الاسكندرية وما حدث لهم من الاضطهاد في السويس خصوصاً اذ قام الرعاع بمطاردتهم في طرق المدينة ونهب الكنيسة القبطية واحراق اثاثها امام مدخلها على جثة دامية صار بعضهم يضعون من دمها على الاعلانات التي كانوا يحملونها . وضحايا هذه الفتنة الشنعاء ثلاثة اشخاص ماتوا حرقاً وعشرة لا يُعرف مصيرهم وستة او سبعة جرحى في مستشفى الحكومة لا يُرخص لأحد بالاتصال بهم وقد يكون سبب ذلك ما قد يؤدّونه من شهادة لا تُشرّف البلاد.

ثم قد أسفت الحكومة المصرية كثيراً لهذه الحوادث واستنكرتها وجاهرت باستيائها منها وحاولت ارضاء الشعب المسيحي البري. لكن لا يمكن للمسيحيين ان يكتفوا بالاقوال وباظهار عواطف لا غير. انهم يريدون وبكل حق ان تثبت الحكومة اخلاصها لهم بمنحهم حقوقهم الوطنية تامة دون تمييز بينهم وبين مواطنيهم المسلمين والا فما معنى ما يتغنون به من اتحاد وطني.

ولهذه الحقوق فقد طالب بها بكل صراحة القمص سرجيوس الوكيل البطريركي للاقباط الاورثوذكس في جريدته وهي اولاً : حرية بناء المعابد . ثانياً : التعليم الديني في المدارس الرسمية للمسيحيين كما للاسلام . ثالثاً : منع خطف الاولاد المسيحيين القصّر لحملهم مسلمين بتزويجهم مع مسلمين . رابعاً : عدم التفريق بين المسلم والمسيحي في قبول موظفي الحكومة والشركات.

فما يكون جواب الحكومة على هذه المطالبة وما رأيها فيها.

الاضطهاد الديني في الصين : لا تزال هذه الاضطهادات عنيفة وهي تستعمل من الوسائط الشنيعة ما هو عار على البشرية.

في منتصف شهر كانون الثاني وجه قداسة البابا الى الاكليروس والشعب المسيحي في الصين رسالة يدحض فيها اكاذيب المضطهدين ويؤكد بانه لا هدف للكنيسة في الرسالات الا ممارسة اعمالها الروحية والمشاركة في الخدمة لسعادة البلاد ورقيها. وان لا غاية للمرسلين الاجانب فيها الا إعداد خدمة روحيين يقومون يوماً مقامهم في الصين وطنهم ويديرون هم انفسهم كنائسها ومعاهدها ومؤسساتها . يشهد على ذلك سيامة ستة مطارين صينيين في روما سنة ١٩٢٧ وتعيين البابا الحالي لاول كردنال صيني سنة ١٩٤٦.

بهذه المناسبة نضع تحت نظر قرائنا نبذة من رسالة بعث بها طلبة كلية « الفجر » الصينيون في شنغاي يهنئون بها راعي كنيستهم الصيني كونغ بين ماي بفرصة عيدالسنة الجديدة :

« . . . لقد مر العام الماضي لكن كم حيّ هو هذا الماضي وما أملاه من معنى . رغماً عما في هذه المرحلة من دم ودموع فانَّ في الاحتمال حلاوة ورجاء وفي التضحية حباً وفرحاً . بادارتك يا صاحب السيادة تبدأ ابرشية شنغاي اجمل حياة . . . ان العراك يتطلب تضحيات ويطلب النصر ثمناً . تتطلب حماية الايمان دماً ودموعاً ورغماً عن ان العراك والتضحية أليمان فلا يزال الفرح يملأ قلوبنا . لسنا نحن ممن يخافون وسوف نمشي الى الأمام دون فزع : ان آثار ابطالنا الدموية هي ترينا الطريق . . . »

اخبار عالمية

انكلترا : ليلة اليوم الخامس من شباط توفي فجأة الملك جورج السادس ودُفن في اليوم الخامس عشر وقد أظهرت انكلترا عظيم تقديرها له وتأثرها لفقدانه وشيّعته في مأتم فخم . وكان ايضاً في تشييعه الى مقره الاخير خمسة ملوك وسبع ملكات وثلاثة رؤساء

دولة وشات من الامراء واصحاب الرتب ، وفي ٦ شباط أعلنت خلفاً له ابنته الكبرى الصاحبات الثانية

القطر المصري : صباح يوم الاحد الواقع في ٢٧ كانون الثاني قامت في القاهرة ثورة شديدة دامت ساعات وانتهت عن أكثر من مئة قتيل . وقد ناهز عدد المتظاهرين خمسين الفاً قاموا تحتاط جم ٥٠ فرق الانقاذ » يجولون في شوارع المدينة يضجّون ويصرخون ضد انكلترا مطالبين بإشهار الحرب عليها وباستمداد الاسلحة من روسيا لمحاربتها . وتدلّ هذه المطالبات عن مصدر هذه الفتنة وغايتها الحقيقية .

اتّجه المتظاهرون اولاً الى شوارع حيّ المجلس النيابي ورئاسة الوزارة ومنها قصدوا قصر عابدين وقد أخذ منهم الهياج كل مأخذ فكانت النيران تلتهب وترتفع حيثما مرّوا فدُمّرت المخا[illegible] منشآت عديدة . . . واذ احسّت الحكومة بان الامر خرج من يدها جدّت في قمع الفتنة بالقوة فتدخلت الشرطة لمكافحة المشاغبين وأطلقت بادىء بدء بواريدها في الفضاء تهويلاً ثم اضطرّت الى مطاردة المتظاهرين فهاجمتهم بعنف فتبدّدوا بعد ان وقع عدد منهم قتلى . لكنهم بعد الظهر عادوا فتجمعوا حاملين المشاعل وابتدأت حينئذٍ حرائق عديدة . . .

اخيراً عند الساعة الخامسة مساء ظهر الجنود وأخمدوا الثورة . اجتمع اذ ذاك مجلس الوزراء واعلن الحكم العسكري . ثم في ليلة الاثنين عند الساعة الثالثة والعشرين أصدر الملك فاروق أمره باقالة حكومة النحاس باشا وتعيين السيد علي ماهر باشا لتشكيل الوزارة الجديدة . والسيد علي ماهر باشا من حزب المستقلّين

السودان : من مطاليب مصر ضمّ بلاد السودان اليها وذلك خصوصاً لمعظم اهميتها بنظر مصر لمرور النيل فيها قبل وصوله الى القطر المصري .

يسكن بلاد السودان شعوب ليست متجانسة بل تختلف اختلافاً كلّياً بعضها من بعض . فالشمال وهو ثلثا البلاد هو جغرافياً جزء من افريقيا الشمالية الصحراوية ويسكنه اكثر من خمسة ملايين من المسلمين يتكلمون اللغة العربية . اما الجنوب فبلاد فيافي وغابات ومناقع يسكنها نحو مليونين ونصف مليون من السودان الوثنيين منهم نحو مئة الف مسيحي كاثوليكي . عندما ألغت الحكومة المصرية معاهدتها مع انكلترا في تشرين الاول الماضي اضطربت في السودان الحالة السياسية وانقسم اهاليه الى ثلاثة احزاب : الاول وهو « حزب الامة » يطالب بالاستقلال التام وباتحاد نوعيّ مع انكلترا . والثاني يريد الانضمام الى مصر دون قيد ولا شرط . والثالث وهو حزب السود سكان الجنوب ومعهم عدد كبير من المسلمين الشماليين ذوي النفوذ يطالب بانتداب انكليزي وقتيّ .

لبنان والفلسطينيون المهاجرون : لا تزال مشكلة المهاجرين الفلسطينيّين تشغل السياسة الدولية وخصوصاً العربية وبالاخص اللبنانية . وفي هذه الايام الاخيرة قد كثر التحدث بإبقاء المهاجرين في البلاد التي استوطنوها وأعطائهم الحقوق الوطنية فيها

قيل ان بعض اعضاء الجامعة العربية وهذا وذاك من سياسيي لبنان يريدون ان ينتهزوا هذه الفرصة للتوصل الى الإخلال بالتوازن الطائفي في لبنان وذلك بفرضهم عليه عدداً ضخماً من المهاجرين غير المسيحيين. لكن المسؤولين اللبنانيين الصادقين المخلصين لوطنهم يرفضون ذلك ويلاحظون بان لبنان بلد صغير وهو آهل الى حد انه لا يمكنه قط استيعاب سكان جدد. فان مساحته لا تتجاوز عشرة الاف كيلومتر مربع وسكانه مليون وثلاثمئة الف اي ان الكيلومتر المربع الواحد في لبنان يسكنه مئة وثلاثون نسمة مع ان في سوريا والاردن والعراق ساحات عظيمة لا يتجاوز عدد سكانها خمس عشرة نسمة في الكيلومتر المربع. ويلاحظون علاوة على ذلك ان المواليد وحدها تزيد كل سنة في عدد سكان لبنان من عشرين الى خمسة وعشرين الف نسمة وان البطالة والهجرة قد استفحل امرهما وان المهاجرين – وقد بلغ عددهم مئة وثلاثة وارمين الفاً – قد أخذوا الآن يفتشون على شغل مهما كانت اجرته لكي يزيدوا شيئاً على النزر الذي يصيبهم من المساعدات الدولية وهكذا يزاحمون العامل اللبناني ويجعلون حالته تزداد استياء من يوم الى يوم

تركة ستالين : منذ ١٦ تشرين الثاني تواترت الاشاعات عن مرض ستالين وحالته الخطيرة وعن إنشاء حكومة تخلفه في موسكو لادارة الامور مركبة من ثلاثة أعضاء هم السادة مولوتوف وبيريا وملنكوف.

مما يسند حقيقة هذه الاشاعات ان ستالين–وهو رئيس الحكومة وامين الحزب الشيوعي– لم يحضر في ١٧ تشرين الثاني الاعياد التقليدية لمناسبة ذكرى الانقلاب الروسي الكبير. وكذلك في كانون الاول لم يظهر قط في حفلات الافراح التي جرت لذكراه السنوية الثانية والسبعين. ولا بد انه يقضي الآن فصل الشتاء بعيداً عن برد موسكو القارس في سواحل البحر الاسود

والاشخاص الثلاثة المذكورون اعلاه هم من اعضاء البوليتبرو الشيوعي التسعة وهم : ستالين ومولوتوف ومالنكوف واندرو وكاغانوفيتش وفوروشيلوف وبيريا وفوشيسنكي وكروستشف.

ستالين واليابان : بمناسبة السنة الجديدة بعث ستالين الى الشعب الياباني رسالة فيها يُعبر عن «تأثره الصادق لما تكابده اليابان ضحيةُ احتلال الغرب». فكان جواب رئيس الوزارة اليابانية ان اليابان تنتظر من ستالين لا كلاماً فحسب لكن اعمالاً : نطلب منه تحرير ثلاثمئة الف سجين حرب لا يزالون الى اليوم معتقلين في روسيا.

★

مطبوعات شرقية

بيزنطية والعرب*

بقلم الاب جان مصريان اليسوعي

لقد لابس باستمرار تاريخ الامبراطورية البزنطية ، وذلك زهاء خمس مئة سنة من القرن السابع الى القرن الحادي عشر المسيحي ، تاريخ الخلافة العربية التي كانت عاصمتها اولاً دمشق ومن ثم بغداد . فلا بد اذاً للمؤلفات الخاصة بكلتا الدولتين من ان تعتمد ما دوّنته مظانّ الامبراطوريتين من وثائق لتكون اوفى موضوعاً واشد واقعية على الاخص .

ومما لا شك فيه ان بعض الدراسات الواسعة ذات القيمة الكبرى قد استمدت قسطاً وافراً من مصادر الامبراطوريتين ومن مختلف المظانّ المدونة باللغات الشرقية ولاسيا العربية في ترجماتها الى اللغات الاوربية . وحسبنا الاشارة الى اهم هذه الدروس التي نحن بصددها .

منها تاريخ شارل له بو (Charles Le Beau, *L'Histoire du Bas-Empire*) للامبراطورية الشرقية الحديثة الموضوع في القرن الثامن عشر وقد طبع ثانية من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٣٦ بعد ان اعاد النظر فيه وافاد من المصادر الشرقية المستشرقان سان مارتن (Saint-Martin) الاختصاصي بالمظان الارمنية وبروسه (Brosset) الاختصاصي بالمصادر الجيورجية .

(*) A. A. Vasiliev : *Byzance et les arabes*. Tome I, *La dynastie d'Amorium* (820-867), édition française préparée par Henri Grégoire et Marius Canard. In-8°, XV+451 pp., Bruxelles, 1935. — Tome II, *La dynastie macédonienne* (867-959), édition française, 1re partie, sous presse ; 2e partie, *Extraits des sources arabes*, traduits par Marius Canard. In 8°, X+440 pp., 1950. — Tome III, *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches* von 363 bis 1071, par Ernst Honigmann, In - 8°, 269 pp., et 4 cartes.

وكذلك حوالي نهاية القرن التاسع عشر قبس العالم الفرنسي غوستاف شلومبرجه (Gustave Schlumberger) المشهور باختصاصه بالتاريخ البزنطي من ترجمات المصادر الشرقية ليضع مؤلفاته الاربعة الرائعة التي عنوانها امبراطور بزنطي في القرن العاشر : نقفور فوكاس (Un empereur byzantin au X° siècle: Nicéphore Phocas) والملحمة البزنطية في نهاية القرن العاشر » ثلاثة مجلدات «

ثم هناك مؤلفات جيبون (Gibbon) وفنلي (Finlay) وبري (Bury) بالانكليزية وكرومباخر (Krumbacher) وغلزر (Gelzer) بالالمانية وڤازلياڤ (Vasiliev) واوسپنسكي (Ouspenskij) بالروسية وكلها مؤلفات اصيلة ذلك ما عدا المؤلفات العامة التي لا يحصى عددها التي صدرت من خمسين سنة ولاسيا بعد الحرب العالمية الاولى .

ويستحق من بين جميع هذه المؤلفات مؤلف العالم الروسي ڤازلياڤ انتباهاً خاصاً . ومما اتاح لنا الفرصة لنشير اليه بمقالنا هذا لقراء مجلتنا هو اعادة طبعه مترجماً الى اللغة الفرنسية .

ان الكسندر الكسندروڤيتش ڤازيلياڤ (Alexandre Alexandrovitch Vasiliev) الذي كان سابقاً استاذاً في جامعة سان پترسبورج (Saint Petersbourg) وهو الآن استاذ في جامعة ماديسن وسكنسن (Madison-Wisconsin) من اعمال الولايات المتحدة الاميركية قد نشر كتابه منذ زهاء خمسين سنة بالروسية » بعنوان عام « بزنطية والعرب (Byzance et les Arabes) في جزءين . فعالج في الجزء الاول الصادر سنة ١٩٠٠ دراسة عهد الاسرة العمورية (La dynastie Amorienne) (٨٢٠ — ٨٦٧) وفي الثاني المطبوع سنة ١٩٠٢ عهد الاسرة المقدونية (La dynastie Macédonienne) وذلك في اثناء القرن الاول من حكمها فقط اي من ٨٦٧—٩٥٩

على ان اباطرة الاسرة المقدونية استمروا على عرش بزنطية اكثر من قرن آخر وكان لهم من المآتي السياسية والعسكرية ما يبعث على الاعجاب كرومان ليكاپان (Romain Lécapène) وجان تزيميسكاس (Jean Tzimiskès) وباسيل

الثاني (Basile II) بينما كانت الخلافة العربية قد اخذت تفقد تماسكها فانقسمت الى امارات ينافس بعضها الآخر وصارت بغداد العاصمة نفسها العوبة بين ايدي المرتزقة الاتراك القادمين من الصحارى الاسيوية . فالحقبة التي درسها فازلياف في جزءيه وهي تمتدّ من سنة ٨٢٠ الى ٩٥٩ كانت زمن مساجلات عسكرية يتعاقب فيها العز والذل على كل من الامبراطوريتين بالتناوب .

في ذلك العهد افتتح العرب كريت وصقلية وأتوس وسالونيك حتى ان اسطولهم استطاع الاقتراب من القسطنطينية كما ان جيوشهم بلغتها بعد قليل عن طريق البر .

وما عسانا نقول عن موقعة عمورية الشهيرة القائمة في قلب الديار البيزنطية والتي رأى فيها النور امبراطور بيزنطية في ذلك العهد . اراد الخليفة المعتصم ان ينتقم للهزيمة التي مني بها سنة ٨٣٨ . فاعدّ في السنة التي تلتها حملة على عمورية التي كانوا يصفونها بانها امنع حصون الروم واعزها . فالاستعدادات وحصار العرب للمدينة وسقوطها نهائيًا في ايديهم بسبب الخيانة ثم ما تلا ذلك من الاهوال كل هذا يؤلف فاجعة حقيقية استطاع ان يضعها السيد ڤازيلياڤ امام اعين القراء في صورة مركزة مستندًا الى وثائق عديدة استنفدت ثلثي صفحاته حواشيَ .

لكن الجيوش البيزنطية لم تعدم من جهتها القيام بردّات افعال ظفرت فيها فاستردّت جميع الاراضي التي خسرتها وزحفت حتى ملطية والرها (اورفه) ونصيبين ، ومن ثم الى انطاكية والى ابعد منها جنوبًا وشرقًا فكان ذلك العهد بدء ما يسمونه الصليبة البيزنطية للاسرة المقدونية . فتعدى السيد فازيلياف الى سر دالانتصارات البيزنطية بما لا يقلّ دقة وحيوية عن ذكره لانتصار العرب .

وللمؤلف السيد ڤازيلياڤ الذي اشرف على اعداده الاستاذان الروسيان الكبيران ڤازيل ڤازيليڤسكي (Vasil Vasilievskij) الاختصاصي بالدروس البيزنطية والبارون روزن (Baron Rosen) المستشرق باللغة العربية ميزة رآها رجال الاختصاص في ذلك الحين امرًا طريفًا وهي انه قد دوّن في نهاية كل

جزء مقتطفات مطولة من النصوص العربية التي عوّل عليها في وضع رواياته مترجمة الى اللغة الروسية بحيث انه كان بوسع المطالع ان يتحقق بنفسه ما تفيد المصادر اليونانية من المصادر العربية من تأييد او توضيح لا بل من تصحيح .

◆

وعلى ما لمؤلف السيد ڤازيلياڤ من محاسن فلم يستفد منه الّا عدد قليل من المؤرخين في ذلك العهد حتى ايامنا لعدم انتشار اللغة الروسية وناهيك عن هذا فان الكتاب اصبح مفقودًا . ومن جهة اخرى لقد تحسنت بعد نشره سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠٢ دراسة المظان العربية واكتشفت مخطوطات جديدة وزد على ذلك لقد اصبح مستطاعاً ايضاح بعض المناحي النفسية او التاريخية عن طريق دراسة المنظومات الشعرية العربية وبخاصة شعر الملاحم الذي عرف حديثاً وعمّقت دراسته مجددًا .

فما كانت هذه الاعتبارات لتعزب عن نظر السيد هنري غريغوار (Henri Grégoire) الثاقب وهو العامل الاقوى في بلجيكا على احياء الدراسات البيزنطية والمشرقية فعقد النية على ترجمة مؤلف ڤازيلياڤ الى الفرنسية واستكماله بمعاونة بعض الاكفاء . وهم المرحوم نللينو (C. Nallino) والسيد ارنست هونيغمان (Ernst Honigmann) وبالاخص السيد ماريوس كانار (Marius Canard) .

كان صدر الجزء الاول المختص باسرة عمورية (٨٢٠–٨٦٧) منذ سنة ١٩٣٥ وهو يقع بـ ١٥ + ٤٥١ صفحة ، وقد اجمع الرأي في الحكم على اخراجه وعلى ما عُلّق عليه من هوامش مستفيضة وما الحق به من ذيول وملحوظات كثيرة انه مستوف الغاية وكانت نتيجة الدراسات المستحدثة في الـ ٤٧ سنة ؛ ان زيد على الـ ٢٤٣ صفحة المخصّصة لبسط الاحداث السياسية وللملحوظات المدونة على الهوامش ١٨٢ صفحة اخرى تنقل الينا مقتطفات من المؤرخين العرب وبعض الملحوظات الاكمالية يعود الفضل في جمعها الى عدد من رجال الاختصاص والى السيد كانار خاصة

افليس الاولى ان يقال والحالة هذه ان مؤلفاً مجددًا قد وضع في متناول الطبقة العالمة ؟

لذا كنّا نتشوّق الى صدور الجزء الثاني مجددًا على غرار الجزء الاول .
وهو مخصّص بالنصف الاول من الاسرة المقدونية الممتدّ من عهد الامبراطور باسيل الاول حتى عهد قسطنطين بورفيرجينت (Constantin Porphyrogénète) (٨٦٧ — ٩٥٩) .

وقد كان هذا الجزء الذي طال بنا انتظاره جاهزًا منذ سنة ١٩٣٩ على انه لم يصدر الّا في سنة ١٩٥٠ وذلك جزئيًا لان الجزء الذي في متناول الطبقة العالمة ليس الّا القسم الثاني من الجزء الثاني اي القسم المشتمل على مقتطفات الكتبة العرب ، ولقد ازداد هذا القسم وهو الذي يحوي المراجع الى اكثر من ضعفين بالنسبة الى الطبعة الروسية فغدا يؤلف كتاباً من ٤٥٠ صفحة والطبعة الحالية ، فضلًا عن انها تطيل بعض مقتطفات ڤازيلياڤ التي نقلها عن مؤرخي العرب ، فانها تضيف عليها مقتطفات لخمسة عشر مؤرخًا جديدًا وثمانية شعراء وستة جغرافيين .

ومما يزيد من اهمية هذه الوثائق هو انها مسبوقة بترجمة لحياة الكتبة وبملاحظات كتبية على مؤلفاتهم هي في غاية الملاءمة لما قد تم من مختلف الابحاث والدراسات من اقدمها الى احدثها .

وتؤلف هذه الملحوظات وحدها شبه موجز لآداب التاريخ والجغرافية عند العرب وحسبنا على دليلًا ذلك تعدادها .

فالطبعة الجديدة تحوي في ذيول الجزءين اسماء ٦٠ اديباً عربيًا من مؤرخين وجغرافيين وشعراء. قد خُصَّ خمسة عشر من بينهم بترجمة لحياتهم وافادات عن مؤلفاتهم .

وها هي ذي اللائحة الممتدة من كلا الجزءين مرتبة بحسب السياق التاريخي في قسمين : المؤرخون اولًا وهم الكثرة الكبرى مع الجغرافيين ، وثم الشعراء مع اسماء ثلاثة مؤلفين أُخر .

ولقد اعتمدت في سبيل ترتيب اسمائهم تاريخ وفاتهم الحقيقي او المرجح لان تاريخ الولادة مجهول لمعظمهم

ثبت اسماء المؤرخين والجغرافيين والشعراء

ا – المؤرخون والجغرافيون

١ – ابن قتيبة	المتوفى سنة	٨٨٤–٨٨٥
		او ٨٨٩
٢ – البلاذري	»	٨٩٢–٣
٣ – ابن طيفور	»	٨٩٣
٤ – اليعقوبي	»	في نهاية القرن
–		التاسع
٥ – الطبري	»	٩٣٢
٦ – سعيد بن بطريق	»	٩٠٤
٧ – الصولي	»	٩٤٧
٨ – المسعودي	»	٩٥٦–٧
٩ – الكندي	»	٩٦١
١٠ – حمزه الاصفهاني	»	٩٧٠
١١ – ابن روسته	»	الثلث الاول من
		القرن العاشر
١٢ – عريب	»	في النصف
		الثاني من
		القرن العاشر
١٣ – رياض النفوس	»	في النصف
		الثاني من
		القرن العاشر
١٤ – ابن حوقل	»	الثلث الاخير
		من القرن ١٠
١٥ – المقدسي	»	نهاية القرن
		العاشر
١٦ – اسحق بن الحسين	»	القرن العاشر
١٧ – المؤلف المجهول	»	مطلع القرن
لتاريخ «كمبردج»		الحادي عشر
١٨ – ابن مسكويه	»	١٠٣٠
١٩ – البيروني	»	١٠٤٨
٢٠ – الياس برسينايا	»	١٠٥٦
٢١ – يحيى بن سعيد	حوالي	١٠٦٦

٢٢ – الخطيب البغدادي	المتوفى سنة	١٠٧١
٢٣ – ابن الهمذاني	»	١١٢٧
٢٤ – ابن الازرق	بعد	١١٧٦
٢٥ – ابن ظافر	المتوفى سنة	١٢٢٦
٢٦ – ابن الاثير	»	١٢٣٣/٤
٢٧ – سبط بن الجوزية	»	١٢٥٧
٢٨ – كمال الدين	»	١٢٦١
٢٩ – ابن اصيبعه	»	١٢٧٠
٣٠ – المكين	»	١٢٧٣
٣١ – ابن سعيد	»	١٢٧٤ او
		١٢٨٦
٣٢ – ابن شداد	»	١٢٨٥
٣٣ – المؤلف المجهول لكتاب	»	القرن
العيون (ط. de Goeje)	»	الثالث عشر
٣٤ – ابن العذاري	»	نهاية القرن
		الثالث عشر
٣٥ – بيبرس منصوري	»	١٣٢٥
٣٦ – ابو الفداء	»	١٣٣١
٣٧ – نويري	»	١٣٣٢
٣٨ – برزلي	»	١٣٣٩
٣٩ – ذهبي	»	١٣٤٨
٤٠ – يافعي	»	١٣٦٧
٤١ – ابن كثير	»	١٣٧٣
٤٢ – ابن الخطيب	»	١٣٧٤
٤٣ – ابن خلدون	»	١٤٠٦
٤٤ – المقريزي	»	١٤٤٢
٤٥ – العيني	»	١٤٥١
٤٦ – ابو المحاسن	»	١٤٦٩
٤٧ – السيوطي	»	١٥٠٥
٤٨ – المقري	»	١٦٣٢

ب – الشعراء والمؤلفون المنفردون

٤٩ – ابو تمام المتوفى سنة ٨٤٦
٥٠ – البحتري » ٨٩٧
٥١ – ابن المعتز » ٩٠٨
٥٢ – المتنبي » ٩٥٥
٥٣ – ابو فراس » ٩٦٨
٥٤ – ابن هانئ » ٩٧٣
٥٥و٥٦ السريّ والنامي شاعران

في بلاط سيف الدولة
٥٧ – ابن نباتة المتوفى سنة ٩٨٥
٥٨ – التنوخي » ٩٩٤
٥٩ – ابن النديم » مطلع القرن الحادي عشر
جـ وبعض المظان الاخرى

ولقد ضُبطت مقتطفات هؤلاء الكتبة العرب الستين وفق طبعات حديثة او وفق مخطوطات ما عدا الذين لم يكن بالمستطاع ايجاد نصوصهم الاصلية التي استخدمها ڤازيلياڤ حوالي سنة ١٩٠٠ – وهم قليلون – وهولاء الآخرون وحدهم قد تُرجمت مقتطفاتهم عن الترجمة الروسية الى الافرنسية اما البقية جميعهم فضبطت نصوصهم وفق الترجمات الموجودة وغالباً تُرجمت من جديد .

وفي سبيل القيام بعمل لغوي على هذه الشاكلة كان لا بدّ من مؤرخ مطّلع على الاحداث البيزنطية وقابض على ناصية اللغة الروسية ومتضلّع في الوقت نفسه من اللغة العربية ومن آدابها وكانت هذه الشروط مجتمعة في السيد ماريوس كانار (Marius Canard) الاستاذ في معهد الاداب بجامعة الجزائر الذي سبق له ان ساهم في اعداد الجزء الاول .

وفي الواقع ان الجزء الجديد برمّته هو من صنعه وجدير بكل تقريظ .

ويشوقنا ان لا يتأخر القسم الاول من الجزء نفسه – وفيه الاستخلاص الجامع لكل الكتاب – عن ان يكون في متناول العلماء كما وعد بذلك السيد هنري غريغوار (Henri Grégoire) في توطئته منذئذٍ ليكون بين ايدي الاختصاصين بالشؤون البيزنطية ومستشرقي اللغة العربية خير ذخيرة قيّمة يرجعون اليها . لاسيا ان السيد غريغوار قد كان موفقاً حين ضم الى نسخة ڤازيلياڤ الفرنسية جزءا ثالثاً صدر منذ ١٩٣٥ بقلم الاختصاصي ارنست هونيغمان (Ernst Honigmann, Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches) وهو بحث

علمي واف يستند الى المصادر اليونانية والعربية والسريانية والارمنية تفحص فيه واضعه التبدّلات الطارئة على التخوم بين الامبراطوريتين البزنطية والعربية في خلال مدة اطول جدًّا من المدة التي نظر اليها العالم الروسي اي حتى افول سلطان كل الاسرة المقدونية .

ملحوظة — نشر السيد كانار مقالًا قيّمًا عنوانه « الحمدانيون وارمينية » (*Les Hamdanites et l'Arménie*) في حوليات « معهد الدروس الشرقية » (*Annales de l'Institut d'Études Orientales*) لمعهد الاداب في جامعة الجزائر ، ٧ : ١٩٤٨ ص ٧٧–٩٤ .

F. CALTIER, S. J. — *LE MARIAGE* : *Discipline Orientale et Discipline Occidentale*. La Réforme du 2 mai 1949. Beyrouth : Université Saint-Joseph, 1950, XXIV+450 pp.

ان قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس الثاني عشر ، بناء على التماس قصاده والرؤساء الشرقيين ، اذاع قانون الزواج الشرقي الجديد الذي اصبح نافذًا منذ الثاني من ايار سنة ١٩٤٩ . وقد توخى فيه ، بعد استشارة الرؤساء المذكورين ، توحيد القانونين الغربي والشرقي على قدر الامكان وذلك فيما يتعلق خاصة بموانع الزواج تجنبًا لكثير من المشاكل التي تثيرها الزواجات المنعقدة في مختلف انحاء العالم بين ابناء الطائفة الواحدة او بين ابناء مختلف الطوائف الكاثوليكية الذين يتنقلون اليوم بكل سهولة من اقصى الارض الى اقصاها . وجاء القانون الجديد يلغي الفروق الهامة التي كانت قائمة بين الطوائف الشرقية نفسها ويحمل كثيرًا من الاحكام التي يتضمنها القانون الغربي في نفس الموضوع .

ولكن القانون مهما كان كاملًا لا يقضي على الصعوبات باجمعها ولا ينفي المشاكل كلها بل ربما زادها تعقيدًا ولذلك لا بد من علماء يشرحون القانون ويمهدون السبيل الى فهمه . وعليه قام الاب غالتيه المعروف بمحبته للشرق وللشرقيين وبواسع العلم في كلا القانونين الغربي والشرقي فاتحفنا بكتاب ثمين باللغة الفرنسية هو مفتاح لكل ما أغلق علينا فهمه يعطينا الجواب الوافي الشافي

على اهم المعضلات واكثرها تعقيداً لان الطريقة التي سار عليها المؤلف هي الطريقة عينها التي رسمها القانوني العظيم البابا بنديكتوس الرابع عشر القائل : « ان افضل الطرق لشرح القانون يقوم بان نفسره بذاته ونعيده الى وضعه الاصلي ونبين تطوره مع العصور في المجامع واحكام الاحبار الرومانيين وبان نجلو ما لحقه من تغييرات متتابعة في النص على ممر الازمان » .

وغني عن البيان ان كتاباً كهذا اصبح المرجع الوحيد لكل الطوائف الكاثوليكية من شرقية وغربية يمكن ان يستفيد منه الطلاب والمحامون والمعرّفون وكهنة الرعايا واعضاء الدواوين وغيرهم لان كلّا منهم يجد ما يوافقهُ من حيث الطريقة العلمية والحلول العملية للمشاكل المتعلقة بوظيفته .

الخوري باخوس الفغالي

F. Galtier, S. J. — *Code Oriental de Procédure Ecclésiastique.* Lettre - Préface de S. E. Mgr. Joseph Beltrami, nonce apostolique au Liban. — Beyrouth : Université S^t-Joseph, 1951, XXIV+581. pp.

ومن اقل من سنة على نشر قانون الزواج المذكور فبادر صاحب القداسة المشار اليه الى نشر قانون اصول المحاكمات الشرقية بناء على طلب الرؤساء نفسهم المتعطشين من زمن بعيد الى قانون موحد يلغي المراسيم القديمة الصعبة التطبيق والعديمة الفائدة نظرًا لتطور الاحوال . الا ان هذا النشر وحده لم يفِ بالغاية المقصودة لان الكثيرين من ابناء الطوائف الشرقية في بلادنا يجهلون اللغة اللاتينية وهم فضلًا عن ذلك بحاجة الى شروح وافية وعملية لهذه القوانين ، التي هي عصارة القوانين الرومانية البيزنطية والعصرية ، تسهل استعمالها وتطبيقها في الدواوين الكنسية . وكان السفير البابوي المثلث الرحمات سيادة السيد مارينا قد لمس لمس اليد فائدة كتاب الاب غالتيه في الزواج فطلب اليه كتاباً آخر في اصول المحاكمات . ولبى الاب الغيور الطلب بجهود تذكر فتشكر واتحفنا بكتاب جديد كنا باشد الحاجة اليه . ولم يحد المؤلف عن الطريقة التي اختطها في كتابه السابق الذكر فاظهر بعد مقابلة دقيقة الفروق القائمة بين قانون

الكنيسة الغربية وقانون الكنيسة الشرقية في هذا الموضوع مبيناً كيف استفاد منسقو القانون الشرقي مما صدر من قرارات وارشارات لشرح القانون الغربي ومن اجتهادات المحاكم الرومانية . ولا بد لكل من يريد ان يدرك مدى التشريع الجديد وكنهه ويتفهمه بمعناه الصحيح من ان يعمد الى مؤلف الاب غالتيه الذي تحاشى التطويلات المملة دون ما تقصير في الشرح على الطريقة العلمية التي لا ينقصها شيء من الوضوح والسهولة والدقة . وانك لتجد فيه عند الاقتضاء امثالاً عديدة اكتسبها بخبرته وطويل تعليمه في جامعة القديس يوسف.

انا نثني على جهود الاب غالتيه ونشكر له هاتين التحفتين الغاليتين وندون له بمداد الذهب هذه الخدمة التي اداها لابناء شرقنا العزيز وندعو الجميع الى اقتناء هذين الكتابين النفيسين.

الخوري باخوس الفغالي